شبهات مزعومة حول القرآن الكريم

فضيلة الشيخ
محمد الصادق قمحاوي
من علماء الأزهر الشريف

دار العقيدة



وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

الطبعة الأولى
٢٠٠٥م ـ ١٤٢٦هـ

دار العقيدة
طبع * نشر * توزيع

رقم الإيداع: ١٥٥٣٨ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي: 9 - 070 - 347 - 977

دار العقيدة
الإسكندرية: ١٠١ ش الفتح باكوس ت: ٠٣/٥٧٤٧٣٢١ ف: ٠٣/٥٧٦٥٦٢١
القاهرة: ٣ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر ت: ٠٠٢٠٢/٥١٤٣١٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمدًا به نستأهل غفرانه، ونستمنح عطفه ورضوانه، ونصلي أفضل الصلاة وأتمها على أفضل الخلق وأكملهم من بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، القائل: **«تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها - وفي رواية: «على البيضاء» - لا يزيغ عنها إلا هالك»**، (رواه الترمذي)، والقائل **«تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي»**، (رواه الترمذي)، عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الهداة البررة الذين رفعوا من بعده راية الإسلام فشيدوا صروح مجده وطوّفوا به في الأنام نافذ السلطان رفيع المكان. فدانت لهم الأمم وخضعت لسلطانهم الرقاب، وكان فضل الله عليهم عظيمًا؛ ﴿ **أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (المجادلة: ٢٢).

أما بعد:

فاعلم أن للقرآن الكريم أعداء ألداء من يوم نزوله وإلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها، يُلصقون به التُّهم ويوردون عليه الشبهات، وذلك حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق: وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يحفظ كتابه من تُهم الملحدين المبطلين ومن شبهات المعوقين الجاحدين فقيّض له في كل زمان ومكان جنودًا أقوياء مخلصين، وعلماء أتقياء صالحين: يلتفون حول موائده يغترفون من بحور فيوضاته، ويدافعون عن حياض ساحاته، ويذبون عن جلال قداسته أباطيل المفرضين وكيد الخائنين، وذلك تحقيقًا لوعده تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر: ٩).

هذا ولما شرفني الله - عزَّ وجلَّ - بخدمة كتابه في منهج حياتي، وشغلني به حفظًا وأداء. وتعلمًا وتعليمًا. وزادني تشريفًا أن قمت بتدريسه وتدريس علومه بالمدينة المنورة في كلية القرآن بالجامعة الإسلامية.

وقد رأى بعض المسئولين في تلك الجامعة من القائمين عليها: أن أضع رسالة في بيان الشبهات المزعومة التي أثارها أعداء الدين من الزنادقة والملحدين ثم نردها وندحضها بالدليل القاطع والبرهان الساطع، فقمت من فوري مستعينًا بالله - عزَّ وجلَّ - في تلبية طلبهم وإجابة رغبتهم ورجوت منه وحده العون والتوفيق وأن يسدد خطاي ويحقق غرضي في إزالة تلك الشبهات ومحو هذه الأباطيل معتمدًا في ذلك قول أفاضل العلماء الذين وفقهم الله فأبلوا بلاء حسنًا في هذا المضمار وفي جمع هذه المعلومات المتعلقة بهذا الموضوع، على أنني لا أدعي أني ابتكرت وأنشأت، ولكن قرأت وفهمت فكتبت ورتبت وأحسنت العرض إذا كنت قد وُفِّقت. وسميت هذه الرسالة «**شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها**»، وقد ضمنتها مقدمة تشتمل على أقسام ثلاثة:

١ - القرآن الكريم أنزل خاتمة للكتب الإلهية السابقة ومهيمنًا عليها ومصدقًا لها.

٢ - القرآن الكريم أعظم معجزات النبي ﷺ، والسبب في كونه معجزة بيانية علمية، ثم ذِكْر عدد من معجزاته الكونية وطَرَف من إعجاز القرآن الكريم.

٣ - دفاع علماء الإسلام عن حياض القرآن وردهم على تلك الشبهات وتطور تآليفهم في ذلك.

وعلى أبواب ثلاثة:

الأول - في مصدر القرآن والشبهات التي أثيرت فيه.

الثاني - في نظم القرآن وأسلوبه ومكيّه ومدنيّه وما أورد فيه من تُهم.

الثالث - حول ثبوت نص القرآن الكريم وكتابة مصاحفه، وإنكار الأحرف السبعة وما أثير حولها من شبهات.

ثم خاتمة لهذه الرسالة. والله أسأل أن يجنبني الزلل في القول والعمل، ويجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم إنه سميع الدعاء مجيب النداء. فأقول وبالله التوفيق؛؛؛

محمد الصادق قمحاوي

الأستاذ المساعد بالكلية

تعريف القرآن الكريم

القرآن في اللغة: مصدر قرأ يقال قرأ، قراءة وقرآنًا على وزن الغفران والشكران فهو بمعنى القراءة. ثم نقل في عرف الشارع من هذا المعنى وهو المصدر وجعل عَلَمًا على مقروء معين وهو كتاب الله الكريم، وذلك من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول ودليل كونه في اللغة مصدرًا بمعنى القراءة في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ (القيامة: ١٧-١٨).

وأما معناه في اصطلاح العلماء: فهو كلام الله القديم النوعي المعجز بلفظه ومعناه المنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل المتحدي بأقصر سورة منه، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بطريق التواتر.

فالمراد بالقرآن هنا هو اللفظ المعجز المقروء، لا الصفة القديمة صفة الكلام ولا الكلمات النفسية.

إذا عرفت ذلك فاعلم أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي ختم الله به جميع الكتب السماوية فقد اشتمل على كل ما فيها من أصول العقائد والعبادات والمعاملات، وإن اختلف عنها في فروع التشريع وما فيها ونظم وقوانين وحكم وأمثال وقصص وآداب، بل زاد عليها بما هو أفضل وأكثر في الفائدة وأيسر وأسهل في العمل فاقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** ﴾ (الشورى: ١٣). الآية.

وقوله: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ (المائدة: ٤٨). الآية، وذلك بأسلوب أرقى وأبلغ وأسمى وأنفع وأعم وأشمل، وذلك مع التحدي لجميع العرب بل للثقلين جميعًا على أن يأتوا بكلام مثله فعجزوا ولم

يستطيعوا، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨).

فقد تحداهم وتدرج معهم في التحدي فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا، فطلب منهم أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه فقال: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣). ثم تبين عجزهم عن ذلك بقوله عز من قائل: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤). ثم إن الرسول ﷺ قد بيّن هذه المزية للقرآن الكريم بقوله في الحديث الشريف.

فعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا إنها ستكون فتن كقطع الليل المظلم**»، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَق على كثرة الرد، والذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم**» (رواه الترمذي).

وقال... قال بعض المستشرقين في وصف القرآن الكريم - هو الدكتور موريس المستشرق الفرنسي - قال: إنه أي القرآن ندوة علمية للعلماء ومعجم لغة للغويين ومعلم نحو لمن أراد تقويم لسانه ودائرة معارف للشرائع والقوانين، وكل كتاب سماوي جاء قبله لا يساوي أدنى سورة من سوره في حسن المعاني وانسجام الألفاظ؛ لذلك نرى رجال الطبقة الراقية في الأمة الإسلامية يزدادون تمسكًا بهذا الكتاب، يقتبسون لآياته يزينون بها كلامهم، ويبنون عليها آراءهم كلما ازدادوا رفعةً في القدر ونباهةً في الفكر. «والفضل ما شهدت به الأعداء».

وقد جعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ القرآن الكريم ختامًا لكتبه السماوية كما جعل نبيه محمدًا ﷺ ختامًا لجميع الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وقد أنزل الله القرآن على النبي ﷺ لثلاثة مقاصد رئيسية.

المقصد الأول ـ أن يكون هداية للثقلين.

والثاني ـ أن يكون المعجزة العظمى لتأييد نبيه ﷺ:

والثالث ـ أن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدس.

فأما كونه هداية للثقلين فلأنه يمتاز بأنه هداية عامة وتامة وواضحة. فعمومها لأنها تشمل الإنس والجن في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان. قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ (الأنعام: ١٩). وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الأنعام: ٩٢). الآية، وقال عزّ من قائل: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأحقاف: ٢٩-٣٢). هذا ومن تمام هذه الهداية أنها احتوت على أرقى وأوفى ما عرفت البشرية وعرف التاريخ من هدايات الله للناس، وانتظمت كل ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشر في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبإخوانه وبالكون الذي يعيش فيه، ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد، فاقرأ إن شئت قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ (الروم: ٢١). ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٢).

وقال جلت حكمته: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: ١٠).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي دلت على هذا المعنى، ومن وضوح هذه الهداية أنها تعرض عرضًا رائعًا مؤثرًا، توفرت فيه جميع وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع بأسلوب فريد معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال رائع بسيط وعميق، يستمد بساطته وعمقه من كتاب الكون الناطق بالحق وأمثال خلاله تخرج أدق المعقولات، وحكم بالغات تبهر الألباب بمحاسن الإسلام وجلال التشريع، وقصص تقوى الإيمان، وتهذب النفوس والضمائر، وتصقل الأفكار والعواطف، وتدفع الإنسان إلى التضحية والنهضة، وتصوّر له مستقبل الأبرار والفجار تصويرًا يجعله كأنه حاضر تراه الأبصار في رابعة النهار، إلى غير ذلك من العجب العجاب مما احتواه القرآن الكريم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨). فقد هدى الله به الخلق وأرشدهم إلى ما ينفعهم في دنياهم

من تنظيم شئون حياتهم، وفي أخراهم من المصير إلى جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين هذا هو المقصد الأول.

أما المقصد الثاني من نزول القرآن الكريم: فهو أن يكون في فم الدنيا آية شاهدة برسالة سيدنا محمد ﷺ ويبقى على جبين الزمان معجزة عظمى ودلالة خالدة تنطق بالهدى ودين الحق ظاهرًا على كل الأديان، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون، وقد اقتضت حكمة الله أن يؤيد رسله بآيات بينات ومعجزات تخرق العادات لكل رسول بما ظهر في زمانه واشتهر به فأيد موسى بالعصا التي كانت تظهر منها العجائب وذلك في زمن بلغ فيه فن السحر ذروته وأيّد عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في زمن وصل فيه الطب أقصاه، وأيّد رسوله محمداً بالقرآن في زمن بلغت فيه اللغة العربية والفصاحة مبلغًا لا يُداني. ومعجزات نبوته ﷺ ودلالات رسالته أكثر من أن تحصى، ولكن أعظمها قدرًا وأخلدها ذكرًا وأجلها نفعًا هي معجزة القرآن الكريم؛ فقد تحدى الله بها أئمة البيان وأساطين البلاغة؛ وأعجز بها الخلق أشد الإعجاز:

قال جلت حكمته: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤).

المقصد الثالث من نزول القرآن: هو أن يتعبد الله خلقه بتلاوته، ويقربهم إليه، ويجرهم إلى ساحة قدسه على مجرد ترديد ألفاظه ولو من غير فهم. فإذا ضموا إلى التلاوة فهما ازدادوا أجرًا على أجر. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر: ٢٩-٣٠).

وروى الترمذي من حديث ابن مسعود: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف،**

وميم حرف»، وأخرج من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ يقول الرب سبحانه وتعالى: **«من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه»**. وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة: **«اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»**، وأخرج البيهقي من حديث عائشة: **«البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض»**، إلى غير ذلك من الآثار والأحاديث الكثيرة الدالة على فضل قراءة القرآن وإن تنوعت أسانيدها.

ثم إن هذه خصوصية امتاز بها القرآن الكريم عن غيره من الكتب السماوية السابقة فلا أجر على مجرد التلاوة لها، بل لابد من التفكّر والتدبر والعمل بما فيها. وإنما انفرد القرآن الكريم بهذه المزية لحكم سامية وفوائد غالية:

منها: أن الأجر على مجرد التلاوة عامل مهم من عوامل المحافظة على القرآن وبقائه مصونًا من التغيير والتبديل اللذين أصابا غيره كالتوراة والإنجيل، فهذا الأجر العظيم الذي وعده الله من يتلو كتابه العزيز (القرآن) ولو من غير تفهم من شأنه أن يحبب إلى الناس تلاوته ويدفعهم إلى الإكثار منها ويحركهم إلى استظهاره وحفظه، ولا ريب أن انتشار القراءة والقراء والحفاظ يجعل القرآن كثير الدوران على الألسنة واضح المعالم في جميع الأوساط والطبقات، عند ذلك لا يجرؤ أحد على تغيير شيء فيه، وإلا لقي أشد العنت من عارفيه، كما حدث لبعض من حاولوا هذا الإجرام من أعداء الإسلام الملحدين المارقين، فباءوا بالخسران والضلال المبين، وانقلبوا على أعقابهم خائبين.

ومنها - أي الفوائد -: إيجاد وحدة لغوية للمسلمين تعزز وحدتهم الدينية وتيسر وسائل التفاهم والتعاون فيما بينهم، فتقوى بذلك صفوفهم، وتعظم شوكتهم، وتعلو كلمتهم، وتلك سياسة ربانية فطن لها الإسلام على يد هذا النبي الأمي في عهد قديم من عهود التاريخ، ونجحت هذه السياسة نجاحًا باهرًا حتى

(انضوى) انضم تحت اللسان العربي أمم كثيرة مختلفة اللغات، ونبغ منها علماء أفذاذ سبقوا كثيراً من العرب في فهم لغة القرآن وعلومه، ومن خصوصيته استدراج القارئ إلى التدبر والاهتداء، يهدي القرآن عن طريق هذا الترغيب المشوّق وبواسطة هذا الأسلوب الحكيم فإن من يقرأ القرآن في يومه وهو غافل عن معانيه سيقرؤه في غده وهو ذاكر لها، ومن قرأه في غده وهو ذاكر لها أوشك أن يعمل بعد غد بهديها، وهكذا ينتقل القارئ من درجة إلى درجة أرقى منها حتى يصل إلى الغاية بعد تلك البداية. هكذا قرر العلامة الزرقاني ـ رحمه الله ـ ويرحم الله ابن عطاء السكندري إذ يقول:

«لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه؛ لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذِكْر مع وجود غفلة إلى ذِكْر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة، إلى ذِكْر مع وجود حضور ومن ذِكْر مع وجود حضور، إلى ذِكْر مع وجود غيبة عما سوى المذكور، وهذا بغض النظر عن مذهبه، وما ذلك على الله بعزيز». إلى هذا وغيره مما ذكره العلماء من النصوص الدالة على فضل قراءة القرآن هذا من ناحية تلاوته، أما من ناحية ما احتوى عليه من العلوم والتشريعات والنظم والقوانين ـ فالكتاب العزيز هو أصل التشريع الأول والدستور الجامع لخير الدنيا والآخرة، والقانون المنظِّم لعلاقة الإنسان بربه وعلاقته بإخوانه وبالمجتمع الذي يعيش فيه، ثم جاءت السنة الشريفة ـ وهي الأصل الثاني لهذا التشريع ـ تشرح القرآن الكريم وتفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص العام فيه وتبين المبهم منه وتظهر أسراره على مر الزمان. قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٤٤).

قال السيوطي في «الإتقان»: إن القرآن يحتاج[1] إلى السنة، ومعنى احتياج

---

(١) لماذا لا نشرح الاحتياج بأنه للقارئ، أي نحن محتاجون في فهم القرآن إلى السنة الموضحة حتى لا نعرض القرآن ـ ولو في الظاهر ـ بأنه محتاج إلى ما يبينه ﷺ.

القرآن إلى السنة أنها مبيِّنة له ومفصِّلة لمجملاته؛ لأن فيه كنوزًا تحتاج إلى من يعرف خفاياها فيبرزها، ولا يبرزها إلا السنة المطهرة، ومن هنا يقول يحيى بن كثير: السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب قاضيًا على السنة، ومعنى كون السنة قاضية على الكتاب أي مبينة له وموضحة لمجمله ومبرزة لخباياه، وليس القرآن مبينًا للسنة ولا قاضيًا عليها؛ لأنها بيِّنة بنفسها؛ إذ لم تصل إلى حد القرآن في الإعجاز والإيجاز؛ ولأنها شرح له وشأن الشرح أن يكون أوضح وأبين وأبسط من المشروح.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾ (البقرة: ٤٣). جاء في الآية الأمر بإقامة الصلاة ووجوبها وكذا الزكاة لكن جاء مجملاً في الكيف والكم غير مفصل فتكلفت السنة الشريفة بتفصيل وتبيين هذا الإجمال بقوله ﷺ في الكم: «**خمس صلوات كتبهن الله في اليوم والليلة**». (رواه أبوداود والبيهقي وغيرهما). وفي الكيف كقوله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»، (أخرجه البخاري)، وروى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: إنك رجل أحمق، أتجد الظهر في كتاب الله أربعًا لا يجهر فيها بالقراءة ثم عدّد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله، مفسَّرًا أن كتاب الله أبهم هذا وأن السنة تفسر هذا.

وكذا في الصوم: فقد جاء الأمر به مجملاً في الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ﴾ (البقرة: ١٨٣-١٨٤).

فلم تبين الآية هذا الصوم لا في الكم ولا في الكيف: فوضحته السنة بقول النبي ﷺ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمَّ عليكم فأتموا عدة شعبان ثلاثين يومًا**»، وقوله ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**».

وكذلك في الحج جاء في الآية مجملاً، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران: ٩٧). فلم يوضح هل هو في كل عام أو في العمر مرة واحدة ولم تبين الآية كذلك معنى الاستطاعة، وقد تكلفت السنة بتفصيل ذلك وتوضيحه غاية الإيضاح، كقوله ﷺ في معنى الحديث للرجل الذي سأله عن الحج أهو في العمر مرة أم في كل عام يا رسول الله؟ ثلاث مرات، والرسول يعرض عنه، ويقول: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**»، وكذلك الزكاة جاءت في الآية مجملة مثل قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣). وقوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٤١).

وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ (التوبة: ١٠٣).

كل ذلك جاء مجملاً فجاءت السنة بتوضيح ذلك مثل قوله ﷺ: «**ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة**»، وغيره، وهكذا كل الأحكام الشرعية والتشريعات الإسلامية جاءت كلها أو جلُّها في القرآن الكريم مجملة غير مفصلة، وقامت السنة المطهرة بتوضيحها وشرحها وتفصيلها؛ وذلك لأن الرسول ﷺ وظيفته التبليغ بالبيان والإيضاح، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤). أي وأنزلنا إليك القرآن لتبين للناس ما نُزّل إليهم في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد: بقولك وفعلك، فالرسول يبين عن الله مراده مما أجمله في كتابه.

وفي الأثر: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته - وفي رواية - متكئ على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**». (رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله).

ومعنى قوله: «**لقد أوتيت الكتاب ومثله معه**» أني أوتيت من الوحي غير المتلو تبيانًا له وتوضيحًا وكلٌّ من عند الله - عزَّ وجلَّ - فالرسول لا ينطق عن الهوى:

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ (النجم: ٤). ومعنى: «**يوشك رجل**»، يدل الحديث على أنه سيأتي قوم يتمسكون بظاهر القرآن فقط كالرافضة والخوارج، ويتركون الاستدلال بالسنة المبيِّنة للقرآن، فإن فعلوا ذلك فقد ضلوا وأضلوا، ثم إن بيان السنة للقرآن جاء على وجوه مختلفة:

أحدها - بيان المجمل فيه: كبيان مواقيت الصلوات الخمس وعدد ركعاتها وكيفية ركوعها وسجودها، وغير ذلك، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها وأنواعها، وبيان مناسك الحج ونحوها مما سبق ذكره. قال أحمد بن حنبل: «السنة تفسر الكتاب وتبينه».

وثانيها - بيان معنى لفظ أو تفسيره «كـ «المغضوب عليهم» باليهود، و«الضالين» بالنصارى، وبيان قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ (البقرة: ٢٥). بأنها مطهرة من الحيض والنفاس والغائط والنخامة والبزاق وكل مستقذر، وتفسير قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ (البقرة: ٥٩). بأنهم أشباههم ويقولون حبة في شعيرة بدلاً من امتثال قوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾ (البقرة: ٥٨). وغير ذلك مما خصص به العام أو قيد به المطلق، وهو كثير في كتب السنة، والله أعلم.

القسم الثاني

وهو في بيان أن القرآن الكريم أعظم معجزات الرسول ﷺ وبيان السبب في جعلها معجزة بيانية علمية ولم تكن معجزة محسوسة كما كانت معجزات الرسل قبله، ثم ذِكْر عدد من معجزات النبي ﷺ الكونية وطَرَف من إعجاز القرآن الكريم.

فنقول وبالله التوفيق: اقتضت حكمة الله - عزَّ وجلَّ - أن يكون لكل نبي ورسول أمر خارق للعادة، يُجريه الله على يد من يدعي النبوة؛ تصديقًا له في

دعوته وتأييـدًا لرسالته، وهذا الأمر هو ما يسـميه العلماء بالمعـجزة، وقد أيد الله أنبياء بني إسرائيل بمعجزات مختلفـة، فكانت معجزة كل نبي من جنس ما برع فيه قومه ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ فمعجزة موسى ـ عليه السلام ـ كانت العصا واليد في زمن بلغ فـيه السحر مبلغه، ومـعجزة عيسى ـ عليـه السلام ـ كانت في زمن بلغ فيـه الطب ذروته فأحيا الموتى بإذن الله وأبـرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، ومعجزة داود أن الآن فـي يده الحديد يصنع منه الدروع وما شـاء من لباس الحرب وآلاته محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسـيات، ومعجزة سليمان ـ عليه السلام ـ هي أن علّمه لغة الطير والدواب وسـخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بنّاء وغواص وسخـر الجن له تعمل بين يديه بإذن ربه حيث يشاء وتأتي له بكل مسـتعصٍ وعسير، ومعجزة إبراهيم ـ عـليه السلام ـ أن جعل النار بردًا وسلامًا عليه، أمـا معجزات نبينا وحبيبنا سيدنا مـحمد ﷺ فهي أكثر من أن تحصى أو تُعَد، وهي على نوعين:

النوع الأول ـ المعجزات الكونية المحسوسة كانشقاق القمر، وحنين الجذع الذي كان يخطب عليه بعد أن أُعد له المنبر، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، ومسحه على ضرع الشاة الهزيلة فتدرّ اللبن فيشرب منه العدد الكثير، وتكثير الطعام القليل الذي لا يكفي فردًا واحدًا حـتى يشبع منه العشرات والمئات، وتسـبيح الحصى بين يديه، ونطـق ذراع الشاة المسمـومة عندمـا وُضع له فيهـا السم بمنع الأكل مـنها، والإخبار بالمغيبـات كقوله تعالى: ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ** ﴾ (البقرة: ١٤٢).

وقـوله تـعالى إخبـارًا عن أصحـاب الكهف: ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ** ﴾ (الكهف: ٢٢). وغير ذلك كثير ممـا لا تتسع له هذه النبذة القصيرة.

النوع الثاني من المعجزات ـ المعجزات العلمية البيانية، وهي كثيرة كذلك، أجلُّها وأعظمها القرآن الكريم وقد أظهر الله على يد نبيه محمد ﷺ تصديقًا لدعوته من المعجزات ما لا يفي به العَدُّ فهو أكثر الأنبياء آية وأظهرهم برهانًا، وسنذكر لك في هذا القسم من الآيات ما تقر به عينك ويزداد به يقينك مما رواه الجم الغفير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وأثبته المحدثون في صحاحهم.

ونبدأ منها بأرفعها شأنًا وأوضحها بيانًا وهو القرآن الكريم وإعجازه، فاعلم وفقني الله وإياك أن كتاب الله العزيز يحتوي على وجوه الإعجاز كثيرة، ونجملها من ناحية ضبط أقسامها في أربعة أنواع:

الأول ـ حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، مع أنهم كانوا فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن، وقد خُصّوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة وفيهم سجية وغريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب، يخطبون بَدْهًا في المقامات، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، يقدحون ويترسلون، يرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال، يطوقون من الأوصاف ما هو أجمل من سمط اللآلئ، فيخضعون الألباب، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويبكون الديار، يصيّرون الناقص كاملاً، ويتركون النبيه خاملاً. منهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمنزع القوي، ومنهم الحضري ذو البلاغة البالغة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة والطبع السهل والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية.

وكلاهما له في الحجة البلاغة البارعة والقوة الدافعة، لا يشكون أن الكلام طوع مرادهم، والبلاغة ملك قيادهم، والمنطق طوع إرادتهم، والأدب الرفيع من

صميم سجاياهم، قد ملكوا من ذلـك كل فنونه ودخلوا من أبوابه ورفعوا صروحًا لبلوغ أسبابه، فقالوا في الخطير والحقـير، وتفننوا في الغث والسمين، وتقاولوا في القليل والكثـير، وتساجلوا في النظم والـنثر، فما راعهم إلا رسـول كريم بكتاب عزيز لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه تنزيل من حكيم حمـيد، كتاب أحكمـت آياته، وفُصـلت كلماتـه، وبهرت بلاغـته وفـصاحتـه على كل مـقول ومعقول، وتضافر إيجازه وإعجازه، وظهرت حـقيقته ومجازه، فتبارت في الحسن مطالعه، وحـوت كل البيان مجـامعه وبدائعه، واعـتدل مع إيجازه حسـن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه.

والعرب أفـسح ما كـانوا في هذا الباب مـجالاً وأشهـر ما كانوا فـي الخطابة رجالاً، وأكثـر ما كانوا في الـشعر والسجع ارتجـالاً وأوسع ما كانوا فـي الغريب واللغة مقالاً، فيأتي القرآن بلغتهم التي بهـا يتحاورون فيفحمهم ويتحداهم بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨). وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤).

وبقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

فلم يزل يقرعهم أشد التقريع ويوبخـهم أشد التوبيخ، ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم، ويشـتت نظمهم، ويذم آلهتـهم، ويستبيح أرضهـم وأموالهم وديارهم، وهم في كل هـذا ناكصون عن مـعارضتـه أو مقاومـته، محجـمون عن مماثـلته، يخادعون أنفسهم بالشغب والتـكذيب والاعتزاز بالافتراء بمثل قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٤-٢٥). وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٤). وقولهم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان: ٥).

والمباهات والرضا بالدنية كقولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ (فصلت: ٥). وقولهم: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦).

والادعاء مع العجز مثل قولهم: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (الأنفال: ٣١).

كيف ذلك وقد قال الله لهم: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ (البقرة: ٢٤). فما فعلوا ولا قدروا، وأما من حاول ذلك من سفلتهم كمسيلمة الكذاب فقد كشف عواره جميعهم، وقد سلبهم الله جميعًا ما ألفوه من فصيح كلامهم، فلما سمعه أهل الميز منهم ورأوا أنه ليس من نمط فصاحتهم ولا من جنس بلاغتهم ولوا عنه مدبرين»، فأنت لو تأملت مثلاً قول الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ ﴾ (البقرة: ١٧٩).

وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ (سبأ: ٥١).

وقوله: ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤).

وقوله مثلاً: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤).

وقوله: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٠).

وأشباهها من الآيات تَحقّق لك ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلماتها، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة، ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالف التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب عندها ماء البيان، فلو تأملت في

عجائبه من ربط الكلام بعضه ببعض والتئام سرده وتناسق وجوهه، كقصة يوسف مثلاً على طولها ونحوها، ثم إذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها، وهكذا تجد كل ذلك في القرآن من أوله إلى آخره.

الثاني من أنواع إعجاز القرآن:

صور نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب. ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت عليه مقاطع آيه - وانتهت إليه فواصل كلماته ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له. فما استطاع أحد مماثلة شيء منه. بل حارت فيه عقولهم، وضلت عنه أحلامهم. ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر، والإعجاز بكل واحد من النوعين يوضح المراد بأسلوب آخر الإيجاز والبلاغة كل واحد منهما نوع إعجاز لم تقدر العرب على الإتيان بواحد منهما، إذ كل واحد منهما خارج عن قدرتها مباين لفصاحتها وكلامها.

الثالث من أنواع الإعجاز:

في الكتاب الكريم: ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات مما لم يكن ولم يقع. فوقع ووجد كما ورد وعلى الوجه الذي أخبر به كقوله تعالى: ﴿ **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ (الفتح: ٢٧). وقوله تعالى عن الروم: ﴿ **الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ** ﴾ (الروم: ١-٤). وقوله: ﴿ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** ﴾ (التوبة: ٣٣).

وقد حصل وظهر على كل الأديان، وقوله: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ (النور: ٥٥).

وقوله: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر: ١-٣).

فكان جميع هذا كما أخبر، فغلبت الروم، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، واتسع ملك المسلمين حتى كان لهم في وقت من الأوقات من أقصى بلاد الأندلس غربًا إلى أقاصي الهند شرقًا ومن بلاد الأناضول شمالاً إلى أقاصي السودان جنوبًا.

ثم إليك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩). فكان القرآن كذلك على حالته التي نزل عليها محفوفًا بعناية الله محفوظًا برعايته، لم تمتد إليه يد عابث بتغيير ولا تبديل إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ تحقيقًا لوعده سبحانه بحفظ كتابه.

وقوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥).

فقد تحقق ذلك في غزوة بدر.

وأما قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ (التوبة: ١٤). فكان ذلك كما أخبر، وقد نزلت هذه الآية في خزاعة وساق القصة ابن إسحاق في سيرته، وأورد فيها النظم الذي أرسلته خزاعة إلى النبي ﷺ وأوله:

يا رب إني ناشد محمدًا حِلْفَ أبينا وأبيه الأتلدا

وغير ذلك كثير من الآيات البينات، واقرأ إن شئت سيرة الرسول ﷺ الصحيحة تجد فيها ما فيها من كشف أسرار المنافقين واليهود وفضح أستارهم وكذبهم كقوله تعالى: ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٤). وقوله عن اليهود: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ (النساء: ٤٦). وهكذا والله أعلم.

النوع الرابع من إعجاز القرآن:

ما أنبأ به من أخبار الأمم السابقة والقرون البائدة والشرائع الداثرة ونحو ذلك من الأخبار التي كانت لا يعلم منها القصة الواحدة إلا الفذُّ من أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، ثم يورده - عليه السلام - على وجهه ويأتي به على نصه، كأنه حاضر موجود وقت حصوله، فيقر العالم بذلك على صحته وصدقه. وأن مثله لم ينله بدراسة ولا بتعليم. وقد علموا أنه ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بدراسة ولا مجالسة، فلم يغب عنهم ولم يجهل بحاله أحد منهم. وكثيرًا ما كان يسأله أهل الكتاب عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا، كقصص الأنبياء وبدء الخلق وما في الكتب السابقة مما صدقه فيها العلماء ولم يقدروا على تكذيب ما ذكر منها. ولم يُؤْثَر أن واحدًا منهم أظهر خلاف قوله من كتبهم ولا أبدى صحيحًا ولا سقيمًا من صحفهم. بعد أن قرعهم ووبخهم بقوله: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (آل عمران: ٩٣).

ومما يدل على أن أهل الكتاب يعلمون ما تحداهم فيه الله بقوله: ﴿ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (البقرة: ٩٤). وقد حتم الله عدم إجابتهم بقوله: ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ (البقرة: ٩٥). فما سمع عن أحد منهم أن تمنى الموت ولو بلسانه، مع أنهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه.

ومثل ذلك ما فعله أهل نجران حينما دعاهم الرسول للمباهلة فأبوا، قال تعالى: ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ (آل عمران: ٦١). فامتنعوا عن ذلك.

ومما يدل على ذلك الإعجاز وعلى أن هذا القرآن ليس من كلام البشر تلك الروعة التي تلحق قلوب سامعيه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته، حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا؛ ولهذا قال ﷺ: **«إن القرآن صعب مستصعب على من كرهه»**. وأما المؤمن فلا تزال روعته به قائمة وهيبته إياه مجددة، فتلاوته توليه إقبالاً وتكسبه هشاشة؛ لميل قلبه إليه وتصديقه له، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (الأنفال: ٢).

وقال عز من قائل: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ (الزمر: ٢٣).

وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ (الحشر: ٢١).

ومن دلائل إعجازه كذلك كونه آية باقية ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (الحجر: ٩). وقوله: ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ (فصلت: ٤٢).

وأما سائر معجزات الأنبياء قبله فلم يبق إلا خبرها، وكذلك غير القرآن من معجزات نبينا ﷺ. أما القرآن فلم يزل إلى وقتنا هذا حجة قاهرة، ومعارضته ممتنعة، فالأعصار والأمصار كلها حافلة بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعاند للشرع متجبر عنيد، فما استطاع أحد منهم الإتيان بشيء يُؤْثَر في معارضته، ولا ألَّف كلمتين في مناقضته ولا قدر فيه على مطعن صحيح، ولا قدح فيه إلا بزند شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك أن ألقىٰ العجز بيديه والنكوص على عقبيه، وقد اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا في وجوه إعجاز القرآن، على أن من كتب منهم في

هذا الفن عدد كثير من أفذاذهم وأتقيائهم، فمنهم الخطابي والرماني والزملكاني والإمام الرازي والجرجاني وابن سراقة والقاضي أبو بكر الباقلاني والسيوطي وغيرهم كثيرون.

ومن هنا يُعلم أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي أعجز البشر جميعًا عن أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة من سوره، فثبت بذلك كونه معجزًا من جميع نواحيه، حينئذ يجب على ذوي البصائر والعقول أن يهتموا بمعرفة وجوه إعجازه، وهي كثيرة: فمن قائل إن التحدي وقع بالكلام الأزلي الذي هو صفة للذات العلية، وأن العرب تكلفت في ذلك ما لا يطاق، وبه وقع العجز، وهذا الكلام مردود؛ لأن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يتصور التحدي به، والصفة القديمة لا يمكن الوقوف عليها، فلا يتصور بها تحد. ومن قائل إن إعجاز القرآن كان بالصرفة، أي أن الله صرف العرب عن معارضته بسلب عقولهم هذه الطاقة، وكان في مقدورهم لكن عاقهم عن ذلك أمر خارق، وهو الصرفة، وهذا قول باطل كذلك، بدليل قوله تعالى: **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾** (الإسراء: ٨٨).

فهذه الآية تدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة في اجتماعهم الذي نصت عليه الآية، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن نفسه، فكيف يكون معجزًا وليس فيه صفة إعجاز إذا قلنا بأن الذي أعجزهم هو الله - عزَّ وجلَّ - حيث سلبهم القدرة عن الإتيان بمثله.

إذًا فالقول بالصرفة قول باطل لأنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها للصرفة لم يكن الكلام معجزًا، فلا يتضمن فضيلة على غيره. وليس هذا الكلام بأعجب ممن قالوا إن العجز قد وقع من العرب أيام نزول القرآن، وأما مَنْ بعدهم ففي قدرتهم الإتيان بمثله، وكل ذلك كلام باطل وفاسد، وقد سبق لك فيما تقدم وفيما يأتي إن شاء الله ما يفيد ذلك البطلان.

وقال آخرون: إن وجه إعجازه ما ورد فيه من النظم العجيب والتأليف والترصيف، وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ومباين لأساليب مخاطباتهم؛ ولهذا لم يمكنهم معارضته ولا الإتيان بمثل سورة منه، وإن حذقوا في البلاغة وقول الشعر وإجادة الخطب وصناعة الرسائل، فكل ذلك له طريق تُسلك، ويمكن استدراكه بالعلم والتعليم والتدريب، أما نظم القرآن فليس له مثال يحتذى ولا إمام يقتدى ولا يصح اعتقاد وقوع مثله أبدًا من البشر.

وقال الإمام فخر الدين الرازي: إن وجه الإعجاز في القرآن هو الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب. وقال الزملكاني: إن وجه الإعجاز في القرآن راجع إلى التأليف الخاص به لا مطلق تأليف، اعتدلت مفرداته تركيبًا وزنةً ومعنىً بأن يوقع كل فن منه في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى. قال ابن سراقة: إن من بعض وجوه الإعجاز في القرآن ما ذكر فيه من أعداد الحساب من جمع وضرب وقسمة والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة؛ ليعلم بذلك أهل الحساب أنه ﷺ صادق في قوله وفي دعوته، وأن القرآن ليس من عنده إذ لم يكن محمد خالط الفلاسفة ولا تلقى الحساب ولا الهندسة.

وقال الجمهور من العلماء والحذاق: إن وجه الإعجاز في القرآن قد وقع بنظمه العجيب وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، وذلك أن الله - عزَّ وجلَّ - قد أحاط بكل شيء علمًا وأحاط بالكلام كله: فإذن ترتيب اللفظة بعد اللفظة علم بإحاطته، فأي لفظة منه تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم هو كذلك من أول القرآن إلى آخره، وليس ذلك في قدرة أحد من البشر لما يعتريهم من الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورةً أن أحدًا من البشر لا يحيط بذلك أبدًا وقد جاء نظم القرآن الكريم في الغاية القصوى من الفصاحة، وبطل قول من قال إن العرب كان في قدرتهم الإتيان بمثله فصرفوا عن ذلك.

والصحيح الذي لا يعقل غيره أنه لم يكن ذلك في قدرة أحد قط، ولهذا ترى

البليغ من العرب ينقح القصيدة أو الخطبة له حولاً كاملاً، فكلما أعاد النظر فيها غيّر وبدّل ألفاظًا بألفاظ وأبياتًا بأبياتَ المرة بعد المرة وهلمَّ جرًا.

أما الكتاب العزيز فلو نزعت منه لفظة واحدة، ثم أدير لسان العرب ومعه معاجم اللغويين على لفظة أحسن منها لم يوجد، وتتبين لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع؛ لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة، وقد قامت الحجة على العالم كله بالعرب؛ إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة موسى بالسحرة، وفي معجزة عيسى بالأطباء على نحو ما سبق؛ ولأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير وبأبدع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره فيه.

فكان السحر قد بلغ نهايته في زمن موسى، والطب في زمن عيسى، والفصاحة والبلاغة في زمن محمد ﷺ .

ولكون شريعته المحمدية باقية إلى يوم القيامة خُصَّت بالمعجزة الباقية، وهي القرآن ليراها ذوو البصائر على مر الأيام والدهور، وقد انقرضت معجزات الأنبياء كلها بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وكذا خرقه للعادات في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون، وقد حوى القرآن علم كل شيء. فإذا أردت الطب أخذته من قوله: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا**﴾ (الأعراف: ٣١). ومن قوله: ﴿**إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾ (الفرقان: ٦٧).

وقد تكلم فيما يفيد نظام الصحة بقوله تعالى: ﴿**شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ**﴾ (النحل: ٦٩). وفي الهندسة من قوله تعالى: ﴿**انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ**﴾ (المرسلات: ٣٠). والجدل والمناظرة من قوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي**

رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

وأما الجبر والمقابلة: فقيل إن أوائل السور وما ذكر فيها من حروف مقطعة فيها ذكر عدد وأعوام وأيام وتواريخ أمم سالفة، وأن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض، هكذا ذكر العلماء في كتب التفسير.

وأما الخياطة فمن قوله: ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف: ٢٢).

والحدادة من قوله: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ (سبأ: ١٠). ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد: ٢٥).

والنجارة من قوله: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (هود: ٣٧).

والغزل من قوله: ﴿ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا ﴾ (النحل: ٩٢).

والنسج من قوله: ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ (العنكبوت: ٤١).

والفلاحة والزراعة من قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٣-٦٤).

ودفن الموتى من قوله: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ (المائدة: ٣١).

والصيد من قوله: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ (المائدة: ٩٦).

والغوص من قوله: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ (ص: ٣٧). وقوله: ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ (النحل: ١٤).

والصاغة من قوله: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ (الأعراف: ١٤٨).

والزجاج من قوله: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤).

والفخار من قوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ (القصص: ٣٨).

والملاحة من قوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ (الكهف: ٧٩).

والكتابة من قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: ٣-٤).

والخَبْز من قوله: ﴿فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ (يوسف: ٣٦).

والطبخ من قوله: ﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود: ٦٩).

والغَسْل من قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤).

والجزارة من قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة: ٣).

والبيع والشراء من قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥).

والصَّبْغ من قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨). وقوله: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (فاطر: ٢٧).

والحجارة من قوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ (الأعراف: ٧٤).

والكيل والوزن من قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ٣).

والرمي من قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧).

وفيه من أسماء الآلات والصناعات والمأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع وما يقع في الكائنات ما يحقق قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

القسم الثالث

في بيان دفاع العلماء عن حياض القرآن الكريم والذود عنه وردهم على ما أثير من شبهات حوله وتآليفهم في ذلك وتاريخ تدوينها، وذكر أمثلة مما ألف في

هذا المجال، فلاشك أن الله جلت قدرته قيض للقرآن في كل زمان ومكان من العلماء المخلصين من جنَّدوا أنفسهم للدفاع عن ساحته، فأتعبوا نهارهم وأسهروا ليلهم في دفع هذه الأباطيل ودحض تلك الشبهات بما ألفوا من كتب عديدة وبحوث في لهجتها شديدة، فأخمدوا نار الفتنة وأطفأوا لظى الضلال والعناد، فجزاهم الله عن القرآن والإسلام خير الجزاء، ولنذكر منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ما نعرفه.

ففي أوائل القرن الرابع الهجري ظهر كتاب لمحمد بن خلف بن المرزبان جمع فيه علوم القرآن جملة واحدة، واسمه «الحاوي في علوم القرآن» قيل إنه يقع في سبعة وعشرين جزءًا، ثم ظهر بعده كتاب لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري اسمه «عجائب علوم القرآن»، وكتاب لأبي الحسن الأشعري واسمه «المختزن في علوم القرآن»، ثم كتاب لمحمد بن علي الأدفوي اسمه «الاستغناء في علوم القرآن» قيل إنه يقع في عشرين مجلدًا.

وفي القرن الخامس ألّف علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي كتاب «البرهان في علوم القرآن» ويعد من أعظم ما ألف في هذا الفن ذكروا أنه يقع في ثلاثين مجلدًا، ثم في القرن السادس ظهر كتابان لعبد الرحمن بن الجوزي أحدهما «فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن» والآخر «المجتبى في علوم تتعلق بالقرآن»، وفي القرن السابع الهجري اشتهر كتاب لعلم الدين السخاوي تلميذ الشاطبي المقرئ وهو «جمال القراء وكمال الإقرار» ذكر فيه جملة وفيرة من علوم القرآن، وتلاه أبو شامة فألّف كتابًا أسماه «الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز»، وفي القرن الثامن ألف بدر الدين الزركشي كتابه «البرهان في علوم القرآن» ويعد درة من أنفس الدرر التي اشتهرت في هذا المجال، وفي القرن التاسع كثرت التآليف في علوم القرآن ومعظمه جمع لما سبق وتكرار له.

ومن خصهم جلال الدين السيوطي بالذكر من أهل هذا القرن جلال الدين البلقيني وله كتاب اسمه «مواقع العلوم من مواقع النجوم»، ومحمد بن سليمان الكافيجي شيخ السيوطي وقد ذكر السيوطي أنه طالع كتابه في علوم القرآن، وقال: رأيته تأليفًا لطيفًا ومجموعًا ظريفًا، ذا تركيب وتقرير وتنويع وتحوير. وبعد هؤلاء جميعًا جاء حافظ عصره جلال الدين السيوطي فألّف كتابين في علوم القرآن أولهما «التحبير في علوم التفسير» جمع فيه أكثر من مائة نوع من علوم القرآن وثانيهما الإتقان في علوم القرآن وكان مجموع ما ذكر فيه من علوم القرآن ثمانين نوعًا، وهو من أحسن ما ألّف في علوم القرآن بعد كتاب الزركشي «البرهان»، وما عرف بعد الإتقان كتاب في هذا الميدان يستحق أن يذكر، فكأنما كاد الإتقان أن يكون خاتمة العقد لولا أنه بدأت بوادر نهضة قرآنية في أوائل هذا القرن الرابع عشر الذي نعيش فيه وقامت الدراسات القرآنية على سوقها، وبدأ البحث العلمي يزدهر في علوم القرآن.

فمن المؤلفات القيمة الجامعة لعلوم القرآن التي ذكرها السابقون والمحتوية على أبحاث وتحقيقات في مسائل هامة جديدة «كتاب مناهل العرفان» للشيخ عبد العظيم الزرقاني المصري من علماء الأزهر الشريف، وقد قام فيه بالدفاع عن حياض القرآن وعما أثير حوله من تُهم المبطلين وشبهات المعاندين، وقد أقام الأدلة والبراهين على موضوع إمكان الوحي، وكذلك كتاب «النبأ العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز، وكتاب «الوحي المحمدي» للشيخ محمد رشيد رضا وهو من أنفس الكتب، وفي موضوع إعجاز القرآن كتاب أديب العربية مصطفى صادق الرافعي واسمه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» وفيه فوائد جمة، ومن رواد التفسير المعاصر الذي يمتاز بالأسلوب العميق البليغ والذي يخاطب القلب والعقل والذوق الأدبي المرحوم سيد قطب صاحب كتاب «في ظلال القرآن».

وهناك مباحث شتى في علوم القرآن لعلماء معاصرين لا داعي لذكر أسمائهم حتى لا نـتهم بهم أو نقـصر في سواهم ممـن تجب الإشارة إليهم والإشـادة بهم، كمباحث الشيخ صبحي الصالح وعبـد الكريم الخطيب والشيخ عبد الفتاح القاضي الذي ألف في علوم القـرآن المختلفة أكثر من عشـرين مؤلفًا، فجزاهم الله جـميعًا للقرآن وأهله خير الجزاء، ونفع الله بعلومهم، آمين.

★★

الباب الأول
في مصدر القرآن الكريم والشبهات التي أثيرت فيه

اعلم وفقك الله أن هذا المبحث من أهل مباحث علوم القرآن؛ لأن العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن وأنه كلام الله وأساس للتصديق بنبوة الرسول ﷺ وأن الإسلام حق، ثم هو أصل لكل المباحث بعده في هذا العلم، فلا غرو أن يتصدرها جمعاء ليكون من تقريره وتحقيقه سبيل إلى تقريرها وتحقيقها، وإلا فكيف البناء على غير أساس، ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز سنتكلم على مصدر القرآن وعلى معنى نزوله، ثم على مرات هذا النزول، ودليل كل نزول وكيفيته وحكمته، ثم على الوحي وأدلته العقلية والنقلية والعلمية، ثم دفع الشبهات الواردة على ذلك، فنقول:

معنى نزول القرآن: جاء التعبير بمادة نزول القرآن وما تصرف منها في الكتاب والسنة، قال تعالى في سورة الإسراء ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الإسراء: ١٠٥). وقال ﷺ: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف**»، وهو حديث مشهور بل قيل فيه بالتواتر.

والنزول في استعمال اللغة يطلق ويراد منه الحلول في مكان كما يقال نزل الأمير بالمدينة. والمتعدي منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير في مكان، كقوله تعالى: ﴿ رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٩). ويطلق النزول في اللغة كذلك على انحدار الشيء من علو إلى أسفل، والمتعدي من هذا معناه تحريك الشيء من أعلى إلى أسفل، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (البقرة: ٢٢). ولاشك أن كلا هذين المعنيين قد ورد بهما القرآن، وكأن وجه اختيار التعبير بمادة الإنزال وما تصرف منها هو التنويه بشرف هذا الكتاب؛ نظرًا إلى ما تشير إليه هذه المادة من علو صاحب هذا الكتاب علوًا كبيرًا.

قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف:١-٤). وعلى هذا فقد شرف الله تعالى القرآن بأن جعل له تنزلات ثلاث:

الأول ـ إلى اللوح المحفوظ ودليله قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج:٢٢). وكان هذا الوجود في اللوح بطريقة وفي وقت لا يعلمه إلا الله ـ جل جلاله ـ ومن أطلعه على غيبه. وكان جملةً لا مفرقًا؛ لأنه الظاهر من اللفظ عند الإطلاق ولا صارف عنه، وليس هناك حكمة لتنجيمه في هذا النزول، كما حصل تنجيمه عند إنزاله على النبي ﷺ، وترجع حكمة هذا النزول إلى الحكمة العامة من وجود اللوح نفسه وإقامته سجلاً جامعًا لكل ما قضى الله وقدر وما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتكوين.

فهو شاهد ناطق ومظهر من أروع المظاهر الدالة على عظمة الله وقدرته وعلمه وإرادته وحكمته وواسع سلطانه، ولا ريب أن الإيمان به يقوِّي إيمان العبد بربه، ويبعث الطمأنينة إلى نفسه، والثقة بكل ما يظهره الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته وشئونه في عباده، كما يحمل الناس على السكون والرضا تحت سلطان القضاء والقدر. ومن هنا تهون عليه الحياة بسرائها وضرائها كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:٢٢-٢٣).

على أن الإيمان باللوح وبالكتابة فيه أثر صالح في استقامة العبد المؤمن على الجادة، وتفانيه في طاعة الله ومرضاته، وبُعْده عن مساخطه ومعاصيه؛ لاعتقاده أنها مسطورة عند الله في لوحه، مسجلة لديه في كتابه. قال جل ذكره: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ (القمر:٥٣).

الثاني ـ من التنزيلات النزول إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ودليله قوله سبحانه في سورة الدخان: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ (الدخان: ٣). الآية وكذا قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١). وفي سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة: ١٨٥).

فهذه الآيات الثلاث تدل على أن القرآن أنزل في ليلة واحدة توصف بأنها مباركة من آية الدخان، وتسمى ليلة القدر من سورة القدر، وهي من ليالي شهر رمضان، وذلك جمعًا بين النصوص الثلاثة في العمل بها ودفعًا للتعارض فيما بينها، ومعلوم بالأدلة القاطعة أن القرآن أنزل على النبي ﷺ مفرقًا منجمًا حسب الحوادث والوقائع والأسئلة التي تختلج في صدور العرب ولم ينزل عليه في ليلة واحدة، بل في ثلاث وعشرين سنة، فتعيّن أن يكون النزول التي دلت عليه الآيات الثلاث السابقة نزولاً من نوع آخر غير النزول على النبي ﷺ، وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبيِّنة لمكان هذا النزول وأنه في بيت العزة من السماء الدنيا كما تدل عليه الروايات الآتية:

فقد أخرج الحاكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: «فصل القرآن من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزله على النبي ﷺ».

وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «أنزل القرآن جملةً واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة»، ثم قرأ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣). ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦).

وأخرج الحاكم والبيهقي وغيرهما من طريق منصور عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «أنزل القرآن جملةً واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺ».

وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود فقال: أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة: ١٨٥). وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١). وهذا أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي المحرم وصفر وشهر ربيع. فقال ابن عباس: «إنه أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم مفرقًا يتلو بعضه بعضًا على تؤدة ورفق».

فهذه الأحاديث الأربعة من جملة أحاديث ذكرت في هذا الباب، وكلها صحيحة كما قال العلامة السيوطي، وهي أحاديث موقوفة على ابن عباس غير أن لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ لما هو مقرر من أن قول الصحابي لا مجال للرأي فيه ولم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فحكمه حكم المرفوع، ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات فثبت الاحتجاج بهذه الأحاديث. وكان هذا النزول جملة واحدة في ليلة واحدة هي ليلة القدر كما علمت؛ لأنه المتبادر من التصور للنصوص الثلاثة السابقة؛ وللتنصيص على ذلك في الأحاديث التي عرضت من قبل، بل ذكر السيوطي أن القرطبي نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا. والحكمة في هذا النزول كما نقل عن العلامة أبي شامة هي تفخيم أمر القرآن وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، وبإنزاله مرتين مرة جملة ومرة مفرقًا، بخلاف الكتب السابقة فقد كانت تنزل جملة مرة واحدة.

أما التنزيل الثالث للقرآن: فهو واسطة عقد التنزيلات؛ لأنه المرحلة الأخيرة فمنها شع النور على العالم، وبه وصلت هداية الله إلى الخلق. وكان هذا النزول بواسطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النبي ﷺ كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

وخلاصة القول في كيفية أخذ جبريل القرآن وعمن أخذ فهي كما قال العلامة الزرقاني في المناهل، قال البيهقي في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر: ١). يريد والله أعلم إنا أسمعنا الملك وأفهمناه وأنزلناه بما سمع. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله سماعًا، ويرى أنه أمثل الأقوال من ناحية أخذ جبريل عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا من ناحية تأويل النزول في الآية بابتداء النزول، ويؤيد ذلك ما أخرجه الطبراني من حديث النواس بن سمعان مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «**إذا تكلم بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا وخروا سجدًا، فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله يوحيه بما أراد فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مر بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق. فينتهي به حيث أمر**» انتهى.

ومهما يكن من أمر فإن هذا الموضوع لا يتعلق به كبير عرض مادمنا نقطع بأن مرجع التنزيل هو الله تعالى وحده. ولنعلم في هذا المقام أن الذي نزل به جبريل على النبي ﷺ هو القرآن باعتبار أنه الألفاظ الحقيقية المعجزة من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمد ﷺ في إنشائها وترتيبها، بل الذي رتبها أولاً هو الله سبحانه وتعالى.

ولذلك تنسب له دون سواه، وإن نطق بها جبريل ومحمد ﷺ وملايين الخلق من بعد جبريل ومحمد ﷺ من لدن نزول القرآن إلى قيام الساعة، وفي هذا القدر من تلك المقدمة كفاية، ولنبدأ في أصل البحث وموضوعه.

فنقول وبالله التوفيق: لم يزل أعداء الحق قديمًا وحديثًا يثيرون الغبار في وجه الدين الإسلامي ويلصقون به التهم والأباطيل، وأهم أسلحتهم في هذه المعركة هي الشبهات التي يثيرونها حول كتاب الله، فكلما (أخمدت لهم فتنة عمدوا إلى سواها، وهم اليوم كدأبهم بالأمس، يرددون بعض الشبهات، ويختلقون شبهات أخرى ليستجلبوا بها قلوب الفارغين الغافلين من أبناء المسلمين إلى التشكيك في

القرآن الكريم، وهذا ما يقتضي التتبع لأهم هذه الشبهات التي تثار حديثًا بوجه خاص؛ لفضحها وإبطالها بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة من المنقول والمعقول)، فمن تلك الشبهات:

الشبهة الأولى - «الوحي النفسي» زعموا أن النبي ﷺ كان مصلحًا عبقريًا ذا خيال واسع وإحساس عميق، فكان وجدانه يطغى كثيرًا على حواسه حتى يتخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصًا يكلمه، وما تلك إلا صورة أخيلته ووجدانه، والقرآن هذا إنما هو كلامه ونابع من نفسه، وقد جاء كلامًا معجزًا نتيجة لكلام صاحبه وعبقريته، وليس القرآن وحيًا كما يقال، لأنه لم يثبت علميًا أن هناك غيبًا وراء المادة حتى يصحُ أن ينسب إليه القرآن، وزعم بعضهم أنه ﷺ إنما نسب القرآن لله مع أنه صادر من نفسه ليضفي بذلك عليه القدسية المستمدة من الله، فقد رأى بثاقب فكره أن في ذلك ما يعينه على إصلاح الناس وييسر له انقيادهم إليه. وردًا على هذه الفرية ودفعًا لتلك الشبهة:

نقول: إن النبي ﷺ كان مصلحًا عبقريًا، وكان ذا ذوق سليم وذكاء وقّاد، لكن ليس ذلك نتيجة تعليم ولا كثرة تجربة ولا خلقًا مكتسبًا، وإنما كان كذلك بإصلاح الله له ظاهره وباطنه، فقد تولاه مولاه من يوم أن أراد خلقه إلى أن توفاه وألحقه بالرفيق الأعلى، فقد اصطنعه الله لنفسه ورباه على عينه ورعايته، وأعده إعدادًا يليق بحمل رسالة ربه فرباه وأدبه على موائد رحمته كما قال ﷺ: **«أدبني ربي فأحسن تاديبي»**.

وأما ذكاؤه ورقة إحساسه ووجدانه وعمقه وأدبه ورأفته ورحمته وشمائله فهي أكثر من أن تعد وتحصى، فقد عجز الأولون عن حصرها، ويكفي في ذلك قول الله فيه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: ٤).

وأما إنكارهم الوحي وقولهم: «إن القرآن من كلام محمد ونابع من نفسه ...» إلخ، فهو افتراء وكذب واختلاق وحقد ﴿**حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ**

لَهُمُ الْحَقُّ﴾ (البقرة: ١٠٩)، فإنكارهم للوحي واستبعادهم ذلك ليس إلا نتيجة انطماس بصائرهم، واتخاذهم ذلك أداة للفتنة، وستارًا يقضون من ورائه وطرًا للغواية، ومأربًا للإباحية، وسبيلاً إلى هدم الأديان وضلال بني الإنسان.

أما الوحي فحقيقته في لسان الشرع: هو أن يُعْلِم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر، ويكون الوحي على أنواع شتى. فمنه ما يكون مكالمة بين العبد وربه، كما كلم الله موسى تكليمًا. ومنه ما يكون إلهامًا يقذفه الله في قلب من اصطفاه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعًا، ولا يجد فيه شكًا. ومنه ما يكون منامًا صادقًا، يجيء في تحققه ووقوعه كما يجيء فلق الصبح في تبلجه وسطوعه. ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل ـ عليه السلام ـ، وهو ملك كريم ذو قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين، وذلك النوع هو أكثر الأنواع، ووحي القرآن كله من هذا القبيل، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

ويهبط هذا الوحي على أساليب شتى، فتارة في الأرض، وكان يقول: أنا جبريل وأنت رسول هذه الأمة. وقد يظهر للرسول ﷺ في صورته الحقيقية الملكية، فقد رآه على هذه الصورة مرتين في أول نزوله بـ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١). وذلك في الأرض، ومرة في السماء ليلة المعراج، وتارة يظهر في صورة إنسان يراه الحاضرون ويستمعون إليه، وتارة يهبط على الرسول خفية لا يرى، ولكن يظهر أثره بالتغيير والانفعال على صاحب الرسالة فيغط غطيط النائم ويغيب غيبة كأنها غشية أو إغماء، وما هي في شيء من الغشية والإغماء، إن هي إلا استغراق في لقاء الملك الروحاني وانخلاع عن حالته البشرية العادية، فيؤثر ذلك على الجسم فيغط ويثقل ثقلاً شديدًا قد يتصبب منه الجبين عرقًا في اليوم الشديد البرد.

وقد يكون وقع الوحي على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل في إذن سامعيه وذلك أشد أنواعه، وربما يسمع الحاضرون صوتًا عند وجه الرسول كأنه دوى النحل، لكن لا يفهمون كلامًا ولا يفقهون حديثًا. أما هو ﷺ فيسمع ويعي ما يوحي إليه، ويعلم علم اليقين أن هذا هو وحي الله دون لبس ولا خفاء ولا ارتياب، فإذا انجلى عنه الوحي وجد ما أوحى إليه حاضرًا في ذاكرته منتقشًا في حافظته، كأنما كتب في قلبه كتابة، والأدلة على ذلك عقلية ونقلية:

فالنقلية: ما رواه البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول»**. قالت عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا.

وأما الأدلة العقلية: فلنعلم جميعًا أن أعداء الوحي ومنكريه لا يؤمنون بالأدلة الشرعية النقلية، وإنما يؤمنون بالعقل، وعلى الطريقة التي يستسيغونها، وبالعلم الذي تواضعوا عليه في اصطلاحهم الحديث، وهو جملة المعارف اليقينية التي وصل إليها البحث العلمي الجديد في الوجود وكائناته، من جَعْل الشك أساسًا للبحث، والاستناد إلى القاطع الذي يؤيده الحس دون غيره، فهُم يقدمون الشك ويمعنون فيه، ثم لا يعترفون إلا بالحسيات، ولا يحفلون بمجرد العقليات. ومن هنا حبسوا أنفسهم في سجن المادة ومكثوا حينًا من الدهر ينكرون ما وراء المادة، ويسرفون في الشكوك إلى أبعد الحدود، ويستخفون بأمر الإلهيات والنبوات والوحي إلى مدى بعيد لم تصل إليه أظلم عهود الجاهلية، لولا أن العلم نفسه صدمهم صدمة عنيفة غيّرت رأيهم في إنكار ما وراء المادة، فلنبدأ لهم من هنا بأدلة الوحي العلمية؛ لأنها في الواقع أدلة لإمكان الوحي وتقريبه إلى العقول، فإمكان الوحي هو الخطوة الأولى في الموضوع، وهو ملحوظ في المقدمة الأساسية من

مقدمات الدليل العقلي الآتي، فلا غرو أن يكون لتلك الأدلة العلمية مكان الصدارة والتقديم، فنقول:

قال العلامة الزرقاني - رحمه الله -: إن الدليل الأول من الأدلة العقلية على إمكان الوحي، هو «التنويم المغناطيسي» وهو من المقررات العلمية الثابتة، وقد كشفه الدكتور «مسمر» الألماني في القرن الثامن عشر، وجاهد هو وأتباعه على مدى قرن كامل من الزمان في سبيل إثباته بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة من الخلق، واطمأنوا إلى تجاربه، وأخيرًا أثبتوا بواسطته ما يأتي:

أولاً - أن للإنسان عقلاً باطنًا أرقى من عقله المعتاد كثيرًا، وهو في حالة التنويم يرى ويسمع من بُعْد شاسع، ويقرأ من وراء حجب، ويخبر عن أشياء ليست في متناول علمنا مما لا يوجد في عالم الحس.

ثانيًا - أن للتنويم درجات بعضها فوق بعض، يزداد العقل الباطن سموًا بتنقله فيها.

ثالثًا - قد يوصل التنويم المغناطيسي إلى درجة تخرج فيها روح الوسيط - أي الشخص المستعمل فيه هذا التنويم - من جسده وتمثل إلى جانبه غير مرئية، بينما يكون الجسم في حالة تشبه الموت، لولا وجود علاقة خفية بين الروح والجسد غير مدركة.

رابعًا - أنهم أثبتوا من وراء ذلك أن هناك روحًا، وأن الروح مستقلة عن الجسم كل الاستقلال، ولا تنحل هذه الروح بانحلال الجسم، ومن ذلك استحضار الأرواح، وإن كنا لا نسلم بأنها روح الموتى، ولكن إن صح ذلك فإنها من أعمال الجن.

خامسًا - أثبتوا أن الروح تتصل بالأرواح التي سبقتها إذا تجردت عن المادة، إلى غير ذلك مما لا نسلم بجميع تفاصيله وإن كنا نسلم بهذا العلم وتجاربه ومقرراته في الجملة لثبوت الدليل بها جملة أيضًا بواسطة التجارب العديدة والمشاهدات الكثيرة، وله في الغرب أيضًا من علماء وطلاب ودور كتب ومنظمات

ومستشفيات يؤمها الناس للتداوي به، وليس من موضوعنا هنا أن نتوسع لك في هذا العلم وتاريخه وتجاربه وفوائده، ولكنا نريد أن نتقدم إليك بفكرة مجملة عنه تريك إلى أي حد أظهر الله في هذه العصور آيات باهرات على أيدي الطبيعيين، الذين ينكرون ما وراء المادة، ويسرفون في هذا الإنكار، فانقلبوا بقدرة من الله وفضل يثبتون ما وراء المادة، ويسرفون في هذا الإثبات؛ تحقيقًا لقوله سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣). من خاتمة سورة فصلت.

ثم إننا لنضع بين يديك هنا تجربة واحدة من تجارب هذا التنويم المغناطيسي تقرب إليك الوحي كل التقريب، وتثبت إمكانه في ذهنك وعقلك، يقول صاحب المناهل: وهذه التجربة قد رأيتها بعيني، وسمعتها بأذني بنادي جمعية الشبان المسلمين في مصر على مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبير حضروا ليشهدوا محاضرة مهمة في التنويم المغناطيسي، وإثبات أنه يمكن أن يتخذ سلاحًا مسمومًا لتغيير عقيدة الشخص ودينه، كما استغل ذلك بعض المبشرين إذ فتن بهذا العدوان الخبيث شاب من خيرة الشبان المسلمين سنة (١٣٥١هـ) في حادثة مشهورة مروعة، وما هي منكم ببعيد فقد قام المحاضر وهو أستاذ في التنويم المغناطيسي، وأحضر فتى فيه استعداد خاص للتأثر بالأستاذ كما أن الأستاذ فيه استعداد خاص للتأثير على هذا الفتى، فنظر الأستاذ في عيني الفتي نظرات عميقة نافذة، وأجرى عليه حركات يسمونها سبحات، فما هي إلا لحظة حتى رأينا الفتى يغط غطيط النائم، وقد امتقع لونه، وهمد جسمه، وفقد إحساسه المعتاد، حتى لقد كان أحدنا يخزه بالإبرة وخزات عدة مرات، فلا يبدي الفتى أي حركة، ولا يظهر أي عرض لشعوره وإحساسه بها، وحينئذ تأكدنا أنه قد نام ذلك النوم الصناعي المغناطيسي، فأخذ الأستاذ يسأله: ما اسمك؟ فأجابه باسمه الحقيقي، فقال الأستاذ: ليس هذا هو اسمك وإنما اسمك كذا «وافترى عليه اسمًا آخر»، ثم أخذ يقرر في نفس الفتى هذا الاسم الجديد الكاذب، ويمحو منه أثر الاسم القديم الصادق؛ بواسطة أغاليط يلقنها إياه في صورة الأدلة، وبكلام يوجهه إليه في صيغة

الأمر والنهي حتى خضع له وأذعن، ثم أخذنا نناديه باسمه الحقيقي المرة بعد الأخرى فلا يجيب، ثم نناديه باسمه الموضوع فيجيب دون تردد ولا تلعثم، ثم أمر الأستاذ أن يتذكر الفتى أن هذا الاسم هو اسمه الصحيح، حتى إلى ما بعد نصف ساعة من صحوه ويقظته، ثم أيقظه وأخذ يتم محاضرته ونحن نفجأ الفتى بالاسم الحقيقي فلا يجيب، ثم نفجأه باسمه الجديد فيجيب، حتى إذا مضى نصف الساعة المضروب لذلك عاد الفتى إلى حاله الأول من العلم باسمه الحقيقي.

وبهذه التجربة أثبت الأستاذ أن المنوِّم «بكسر الواو» يستطيع أن يمحو من نفس الشخص كل أثر يريد محوه، مهما كان ثابتًا في النفس كاسم الإنسان ونحوه. وإنما اختار الأستاذ محو الاسم دون الدين لأمرين:

أحدهما ـ أن محو الدين عدوان أثيم وإجرام شنيع لم تقبله نفسية المحاضر ولا الحاضرون.

ثانيهما ـ أن الاسم أثبت في نفس صاحبه من دينه فمحوه منها أعجب، قال: وبهذه التجربة ثبت لنا من طريق علمي ما قرّب إلينا إمكان الوحي عمليًا وما جعلني أعلله تعليلاً علميًا.

فالوحي عن طريق الملك هو عبارة عن اتصال الملك اتصالاً يؤثر به الأول في الثاني، ويتأثر فيه الثاني بالأول؛ وذلك باستعداد خاص في كليهما، فالأول فيه قوة الإلقاء والتأثير؛ لأنه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك؛ لصفاء روحانيته وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك، وعند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية، ويظهر أثر التغير عليه، ويستغرق في الأخذ والتلقي عن الملك، وينطبع ما تلقاه ماثلاً في نفسه حاضرًا في قلبه، كأنما كتب في صحيفة فؤاده كتابًا، فانظر أيها العاقل كيف أن المخلوق يستطيع أن يؤثر في نفس مخلوق آخر ذلك التأثير الذي علمت بواسطة التنويم المغناطيسي، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدرة أن يؤثر في نفس من شاء من عباده بواسطة الوحي المذكور؟! كلا ثم كلا إنه جل شأنه على ما يشاء قدير.

والدليل العلمي الثاني على إمكان الوحي - هو أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وننتفع به مما يسمونه بالتليفون مثلاً واللاسلكي الأعجب والميكرفون والراديو والتليفزيون ونحو ذلك، فمن طريق هذه المخترعات أمكن للإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه لا يستطيع الوصول إليها بعد عشرات السنين من السير المتصل، ثم هو في لحظة أو لحظات يخاطب من يشاء ويفهمه ويرشده إلى ما أراد فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادية أن يعجز الإله القادر على أن يوحي إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملك أو غير الملك؟! تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

الدليل الثالث - استطاع العلم الحديث أن يملأ بعض إسطوانات الجماد الجامد بأصوات وأنغام وبقرآن وكلام على وجه يجعلها حاكية له بدقة وإتقان، وبين أيدينا من ذلك الشيء الكثير الذي لا سبيل إلى إنكاره، أَبَعَدْ هذه المخترعات القائمة يُستبعد على القادر - جل وعلا - بواسطة ملك ومن غير واسطة ملك أن يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس، يهدي به خلقه، ويظهر به حقه، على وجه يجعل ذلك الكلام منتقشًا في قلب رسوله حتى يحكيه بدقة وإتقان؟!

الدليل الرابع - أننا نشاهد بعض الحيوانات الضعيفة تأتي بعجائب الأنظمة والأعمال مما يحيل معه أن يكون ذلك صادرًا عن تفكير لها أو ساذجة فيها، ومما يجعلنا نوقن بأنها لم تصدر في ذلك إلا عن إرادة عليا توحي إليها وتلهمها تلك العجائب والغرائب من الصناعات والأعمال والدقة، فإذا صح هذا في عالم الحيوان فهو أولى أن يصح في عالم الإنسان، حيث استعداده للاتصال بالأفق الأعلى يكون أقوى، وأخذه عنه يكون أتم، ومن ذلك ما يكون بطريق الوحي.

ولنضرب لك مثلاً لتلك الحيوانات في إلهاماته العلوية مثل النمل والنحل، وما تأتيان به من ضروب الأعمال، ودقة النظام التي تتمثل في هندسة قرص الشمع الذي يضع النحل فيه عسله، فانظر تلك الهندسة العجيبة التي يصنعها،

وهناك في بعض المناطق الحارة التي يذوب فيها الشمع من تلك الحرارة، كيف يصنع النحل إزاء ذلك؟ إنه يقسم بعضه فرقًا تتناوب وتسير فوق هذا الشمع بعد صنعه أفواجًا أفواجًا؛ لتنزل عليه الهواء الرطب، فيبقى متجمدًا؛ ليحفظ ذلك العسل الذي يوضع فيه، ومن عجائب النمل أنه يسير على أعظم ترتيب وأدق نظام فيجمع غذاءه في الصيف غالبًا، ويحفظه في أوعية بعيدة عن الرطوبة، وخاصة إذا كانت هذه الأغذية بذورًا، فيقسم البذرة ثلاثة أو أربعة؛ ليضمن بذلك حفظها من إخراج نباتها فتفسد.

وهناك حيوان غريب اسمه «أيكسيكلوب» قال عنه الأستاذ «ميلين إدوار» المدرس بجامعة السربون بفرنسا إن الحيوان المسماة «أيكسيكلوب» تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض مباشرة وتخرج صغارها على حالة ديدان لا أرجل لها، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية عليها، كما أنها لا تستطيع الحصول على غذائها وقتئذ، ومع ذلك فإن حياتها تقتضي أن تعيش مدة سنة في مسكن مقفل وفي هدوء تام، وإلا هلكت؛ فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابًا طويلاً، فإذا أتمته أخذت في جلب ذخيرة إليه تكفي صغيرًا واحدًا مدة سنة، تلك الذخيرة هي طَلْع الأزهار وبعض الأوراق السكرية، فتحشو بها قاع السرداب ثم بنشارة الخشب، وتكوّن منها عجينًا تجعله سقفًا على تلك البيضة، ثم تأتي فتضع عليه بيضة واحدة، ثم تأتي بذخيرة أخرى فتضعها فوق تلك السقف، ثم تضع بيضة أخرى، وهلمَّ جراً، حتى يفرغ بيضها، ثم تترك بيضها الكل وتموت.

فمن ذا الذي علّم هذه الحشرات الضعيفة الساذجة، ومن الذي ألهمها هذا النظام المنقطع النظير وتلك الصناعات المحيرة للعقول، ومن الذي أفهمها وهي تموت بعد أن تبيض مباشرة أن صغارها التي ستولد في حاجة إلى البقاء سنة في حالة ضعف وعجز، ومن الذي غرس في قلبها هذه العناية بنوعها حتى تكلفت كل هذه المشقة في وضع بويضاتها هكذا، لا ريب أن قيّوم الوجود يؤتي الكائنات

علمًا بما يُقيمها وبما يصلح شأنها من غير طريق الحواس التي لا تستطيع أن تكتسبه بها، فسبحان الذي خلق فسوّى وقدّر فهدى.

فمن العبث وضلال الرأي أن يثبت الباحث الطبيعي إلهامًا تبعثه القدرة الإلهية إلى أحقر الحشرات كما علمت، ثم ينفيه عن النوع البشري، وهو أشد ما يكون احتياجًا إلى هذا الوحي - الإلهام - في حياته الفردية والاجتماعية.

وأما الدليل النقلي على إثبات الوحي: فقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ (النجم: ٣-٥). وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: ٥٢). وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٣).

ومن السنة المطهرة: ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبّب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزوّده لمثلها، حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ **«فقلت ما أنا بقارئ»**. فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: **«ما أنا بقارئ»** فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ. فقلت: **«ما أنا بقارئ»** فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق: ١). حتى بلغ قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره..) الحديث، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الواردة في هذا الباب، فارجع إليها إن شئت في كتب الحديث والسيرة، والله يرشدك.

وأما ما زعمه بعضهم من أن القرآن كلام محمد، وإنما نسبه لله ليضفي عليه القدسية المستمدة من الله، وأنه رأى بثاقب فكره أن في ذلك ما يعينه على إصلاح الناس، وييسر له انقيادهم إليه.

فنقول ردًا على ذلك: إن القرآن لو كان من كلام محمد كما يزعمون، لكان من الفخر له أن ينسبه لنفسه بدل نسبته لله، ولأمكن أن يدعى به الألوهية الأفضل من النبوة، فيكون مقدسًا في نظر الناس وهو أكثر من قداسته في نظرهم وهو نبي، ولما كان في حاجة إذًا إلى أن يلتمس هذه القدسية المزعومة بنسبته القرآن إلى غيره وصدق الله إذ يقول: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾ (النساء: ٨٢). ﴿ **فَمَا لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾ (النساء: ٨٧).

وإني لأعتقد أن هؤلاء الملاحدة قد غاب عنهم أنهم يتحدثون عن أكرم شخصية عرفها التاريخ طُهرًا ونبلاً وشرفًا، وذهلوا عن أنهم يمسون بافترائهم هذا أسمى مقام اشتهر أمانة وصدقًا، فكان ﷺ إذا مر بقومه يشيرون إليه بالبنان قائلين هذا هو الصادق الأمين، وقد نزلوا على رأيه ورضوا بحكمه في حادثة اختلافهم على من يضع الحجر على الكعبة.

والعقل المنصف قال ولا يزال يقول: ما كان هذا الأمين الصدوق ليذر الكذب على الناس، ثم يكذب على الله، كلا وألف كلا، ولكن المنافقين لا يفقهون، ثم إن هذه الشبهة وليدة غفلة عما تضمنه القرآن العظيم من تلك الندوات العلمية، وأنبائه الغيبية، وهدايته الخارجة عن أفق العادة في كافة النواحي البشرية فردية كانت أو اجتماعية، لاسيما أن الآتي بهذا القرآن رجل أمي في أمة أمية كانت في أظلم عهود الجاهلية.

أضف إلى ذلك ما سجل القرآن على النبي ﷺ من أخطاء في بعض اجتهاداته ومن عتاب تحس تارة بلطفه وأخرى بعنفه، مثل قوله تعالى في آية التوبة: ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ (التوبة: ٤٣).

وفي آية أخرى من سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧-٦٨).

وفي آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التحريم: ١). وفي آية أخرى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (عبس: ١-٢).

فلو كان هذا التنزيل كلامه ما سمح أن يسجل على نفسه ذلك العتاب كله، ولكن هؤلاء الضالون المضلون سفّهوا أنفسهم، وزعموا رغم هذه البراهين الواضحة والأدلة القاطعة أن محمدًا افترى القرآن على ربه، وكذبوا وضلوا ضلالاً بعيدًا، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٦).

الشبهة الثانية ـ «المعلم من البشر» لم ير بعضهم أن القول بالوحي النفسي يثبت بما يجدونه في القرآن من الأخبار الماضية والمستقبلة. فزعموا أنه تلقى ذلك من معلميه من أهل الكتاب، اتصل بهم في أسفاره إلى الشام وغيرها، ويذكرون منهم بحيرا الراهب.

وزعم بعضهم أنه كان يتلقى من بعض أهل الكتاب، ومن ورقة بن نوفل بمكة، ثم اقتبس كثيرًا من القرآن من يهود المدينة حين انتقاله إليها. فالنبي ﷺ في زعمهم متأثر في قرآنه بالكتب السابقة، ومقتبس منها.

ونقول ردًا على هذه الشبهة وإبطالاً لها:

أولاً ـ أن كل من أوتي حظًا من حسن البيان وذوق البلاغة لابد أن يفرق بين

أسلوب القرآن وغيره من الأساليب فرقًا كبيرًا، يمثل ذلك الفرق الكبير بين مقدور الخالق ومقدور المخلوق، فلا يزال القرآن والحديث قائمين بيننا يناديان في الناس بهذا الفرق البعيد إن كان لهم إحساس في البيان أو ذوق في الكلام، ولو كان لما تدعيه هذه الشرذمة من الملاحدة شيء من الوجاهة لكان أولى الناس بأن يرفعوا بذلك هامتهم هم أولئك العرب الخلص الذين شافههم القرآن عند نزوله، فإنهم كانوا أحرص الناس على تعجيز محمد للاعتبارات التاريخية المعروفة. فتارة يقولون: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ (الإسراء: ٩٠-٩٣).

وكذا قول الله فيهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٨-٩).

ونحو ذلك كثير من عبارات التعجيز والأسئلة المحرجة التي كانوا يوجهونها له لإبطال حجته. لكن هؤلاء العرب ما قالوا مثل هذه الافتراءات، بل كانوا أكرم على أنفسهم من أن يقولوها إيقانًا منهم بظهور المميزات الفائقة بكلام الربوبية عن كلام النبوة بحيث لا يلتبس أحدهما بالآخر في شيء.

ثم إن هذا القرآن لم يأت الناس من الخلف، بل جاءهم من أوسع الأبواب، ودخل عليهم من طريق العرب الخلص ذوي اللسن والبيان، وتحداهم من الناحية التي نبغوا فيها وهي صناعة الكلام، تلك الصناعة البيانية التي وقفوا عليها مواهبهم وأنفقوا فيها حياتهم، حتى صارت مجال تنافسهم وسبقهم وموضع فخرهم وتفوقهم شأن سائر معجزات الله تعالى التي لم تأت القوم إلا من الناحية المفهومة لهم كل الفهم؛ ليظهر أمر الله واضحًا جليًا لا لَبْس فيه ولا غموض ولا شبهة ولا شكوك ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء: ١٦٥).

من هذا نعلم والتاريخ يشهد بـأن القرآن كلام الله وحده، لا دخل لأحد فيه، لا محمد ولا جبريل، ولو كان مصدره محمدًا أو اقتبسه من الأحبار والرهبان كما يقول أولئك المبطلون المغرضون لأمكن لهؤلاء العرب المبرزين في البيان أن يعرفوا أنه كـلامه، بما أوتوا من مـلكة النقـد، وما وهبـوا من نباهة الحـس والذوق، ثم لأمكنهـم أن يـجـاروه، ولو شـوطًا قـريبًا، إن لـم يمكنهم مجاراته شوطًـا بعيدًا. لاسيما أن القرآن قـد اكتفى منهم في معرض التحدي بأن يـأتوا ولو بأقصر سورة من مـثله، أي بثـلاث آيـات قصـار من بين تلـك الآلاف المؤلفة التي اشتمل عليها الكتاب العزيز.

ثم لا يخفي على أحـد أن هؤلاء لم تكن لتعييهم تلك المسـاجلة وهم فرسان ذلك الميـدان وأئمة الفصـاحة والبيـان. فلو كان الأمر مـن صناعة محـمد ﷺ وإنشائه كـما زعموا فمـا بالهم وقد خرست ألسـنتهم، وخشعت لـلقرآن أصوات الأجيال كلها من بعدهم، والمعروف للجميع أن الشخص الفذ النابغة في أي عصر من العصور يستطيع أقرانه بيسر وسهولة أن يحاكوه مجتمعين ومنفردين في الشيء القليل على فرض أنهم لم يستطيعوا معارضته في الجميع أو الشيء الكثير.

أما زعـمهم أنه كان يتـلقى من بعض أهل الـكتاب ومن ورقة بن نـوفل بمكة ومن بحيـرا الراهب حين سفره إلى الشـام في التجارة، فهـذا زعم باطل ومردود عليهم، فالمتتبع لسيرة النبي محـمد ﷺ - تلك السيرة الطاهرة الصحيحة - يعلم علم اليقين أن الرسول ﷺ من يوم نشأته كان يـكره مجالسة أهل الجاهلية وكان يحبـب إليه الخلوة بنـفسه مع ربه يـتعبد عـلى ملة أبيه إبـراهيم، فلما أكـرمه الله بالرسالة زادت كـراهيته لتلك الطوائـف من المعاندين والمشركين، حـتى هاجر إلى المدينة فتضاعفت كراهيته كذلك ليهود المدينة، فأي عقل يصدق أن أحدًا يتلقى عن أعدائه الذين ناصبـوه العداء بادئ ذي بدء؟! وكيف يأخذ عنهم وهـم يتربصون به الدوائر في كل آونة وحين؟! ثم إن الـوقت الذي التقى فيه ببحـيرا الراهب وبورقة

ابن نوفل لم يسمح بتعليم، ولا بأخذ أقل مقدار من مثل القرآن كما زعموا كيف وقد سجل التاريخ تلك المقابلات المعدودة والمحدودة وهي شاهدة بصدق محمد وثبوت نبوته يقول الأمين دويدار في كتابه «صور من حياة الرسول» مع شيء من التعديل فحين بلغ محمد ﷺ خمسًا وعشرين سنة رغبت خديجة بنت خويلد في أن يكون محمد هو الذي يسافر في تجارتها إلى الشام، وهي تعلم أن عمه أبا طالب حريص على أن لا يبعد به كثيرًا عن نطاق مكة، ضنين به على كل سفر يطوح به في البعد عن هذا البلد الأمين، فأخذت تتلطف وتحتال حتى أقنعت أبا طالب بأن يأذن لابن أخيه في الرحلة إلى الشام مع غلامها ميسرة على أن تعطيه ضعف ما تعطي رجلاً من قومه، وكانت سنين مجدبة وأزمة شديدة، فلم يلبث أبو طالب أن استجاب لها وعرض على ابن أخيه أن يذهب في تجارة خديجة إلى الشام، وقَبِل ما عرضه عليه عمه، وخرج في مالها ذاك، وخرج معه غلامها ميسرة، وأعمامه يوصون به، ويبالغون في التوصية، وانطلقت القافلة تسير في الصحراء المترامية الأطراف، وتمعن في دروبها الوعرة، فكلما أعياها السير وأجهدها الحر نزلت منزلاً تستريح، حتى إذا كانت في أحد المنازل مرة نزل ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال الراهب «بحيرا»: ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

وحين وصلت القافلة إلى الشام باع ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فلما قدم على خديجة باعت ما جاء به، فربحت ضعف ما كانت تربح من قبل، وضاعفت ما سمَّت له، وحدَّث ميسرة سيدته بما رأى من إرهاصات النبوة وبما رأى من محمد ﷺ أثناء رحلته من كرم الخُلُق وصدق الوفاء، وحسن الصحبة، وعظم الأمانة، وبما لم ير مثله من صاحب قط في أثناء رحلته، وكانت خديجة ﵂ امرأة شريفة نبيلة حازمة جلدة

تحسن تصريف الأمور في إحكام ورويّة، وكانت أوسط قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا وأكثرهم مالاً، وكان أشراف قومها يحرصون كل الحرص على الزواج منها، ويبذلون في ذلك الأموال، ويمنون الأماني، ولكن خديجة كانت تردهم جميعًا وتأبى عليهم ما يريدون من ذلك، وكأن الله سبحانه وتعالى كتب لها الكرامة وأراد بها الخير فألقى في نفسها أمنية كريمة، وبعث في قلبها عاطفة شريفة أحست بها نحو رسول الله ﷺ فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به من شأن محمد ﷺ ذهبت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد قرأ كتب النصرانية، وعلم مما قرأ فيها أن نبيًا سيظهر في أرض العرب قد آن أوانه، وأن إرهاصات النبوة توشك أن تظهر بين يدي هذا النبي، وأدرك ورقة أن ما عليه محمد من شمائل وصفات وما يبدو عليه من جلائل الآيات جدير بأن يجعله أهلاً لهذه النبوة، فأوحى إلى خديجة بأن محمدًا يوشك أن يكون هو هذا النبي، فزاده ذلك في نفسها مكانة، وجال بخاطرها الرغبة في أن تكون زوجًا له.

قالت نفيسة بنت منية: فأرسلتني دسيسًا إلى محمد بعد أن رجع في عيرها من الشام، فقلت يا محمد ما يمنعك من أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به. فقلت: فإن كفيتك ذلك ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ فقال: فمن هي؟ قلت: خديجة. قال: ومن لي بذلك؟ قلت: عليّ قال: فأنا أفعل. فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه أن «ائت لساعة كذا وكذا، أقول وبعد أن تم هذا الزواج الشريف وحازت خديجة ذلك الشرف العظيم، وجاء آوان الوحي ونزل جبريل على رسول الله ﷺ بأول ما نزل من القرآن، وقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ ثلاث مرات، وكان أخذه وغطّه، وقال له في الثالثة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾. الآيات إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1-4).

فرجع إلى خديجة يرتعد من شدة ما نابه من غطّة الوحي، وحكى لها ما حصل له اليوم، فذهبت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان امرءًا قد

تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمى، فقالت له خديجة: يا بن عم اسمع من ابن أخيك. فقال: يا بن أخي ما ترى؟ فأخبره ـ عليه السلام ـ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ـ لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل ـ ثم قال: يا ليتني فيها جذعًا ـ أي «شابًا جلدًا» ـ إذ يخرجك قومك، أي من بلادك التي نشأت بها، لمعاداتهم إياك وكراهيتهم لك حينما تطالبهم بتغيير اعتقادات وجدوا عليها آباءهم، فعجب ـ عليه السلام ـ مما نسب لقومه مع ما يعلمه من حبهم له؛ لاتصافه عندهم بمكارم الأخلاق والأمانة وصدق القول حتى سموه بالصادق الأمين، فقال: أو مخرجي هم؟ قال: لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

وهذا كل ما دار بين الرسول ﷺ وورقة بن نوفل، فمتى أخذ عليه وتعلم منه وهو بعد هذه المقابلة الخاطفة توفي من توّه، وأما عن يهود المدينة فكانوا يناصبون رسول الله ﷺ العداء من يوم أن حضر إليها إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، فكيف يتلقى عنهم كلامًا هو يعلم علم اليقين أنه كذب وافتراء وإثم وضلال، وهو الملقب بالصادق الأمين، كيف يكون ذلك وقد كان شأنهم معه الغدر والخيانة ونقض العهد والمواثيق وكان ﷺ على غاية الحذر منهم في كل آونة وحين، وقد حفظه الله من كيدهم وغدرهم حتى أدى رسالته على الوجه الأكمل، وصدق الله إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧).

على أن الله جلت قدرته وتعالت حكمته قد تكفل بالرد المقنع على هؤلاء الملحدين المبطلين؛ دفاعًا عن نبيه ورسوله وما نسبوه إليه من أن معلمه رجل من

مكة، فكذبهم الله بقوله تعـالى وهو أصدق القائلين: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣).

قالوا ذلك حينما رأوا رسول الله ﷺ فـي بعض غدواته وروحاته يقف عند رجل صانـع ينظر إلى صنعـته ويتفـقدها، قيـل هو نجار وقيل حـداد، وهو رجل أعجمي يـتكلم بالعبرانـية فكيف يأخذ العـربي عن العجمي، ومـن هو المعلم من البشر ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٥).

★★

الباب الثاني

في نظم القرآن وأسلوبه ومكيه ومدنيه

الشبهة الأولى في هذا الباب: قالوا إن الباحث الناقد يلاحظ فرقًا شاسعًا وتباينًا واضحًا بين أسلوبين في القرآن، لا تربط أحدهما صلة بالآخر، مما يدفعه إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة، وتأثر ببيئات متباينة، واختلاف الأسلوبين ناتج من تطور في أغراض صاحبه وأهدافه.

فمن ذلك أننا نشاهد أن القسم المكي من القرآن ينفرد بالعنف والسباب والوعيد والتهديد، مثل ما ورد في سورة: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ (المسد: ١).

وسورة: ﴿ **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴾ (العصر: ١-٢).

وسورة: ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾ (التكاثر: ١-٨).

ومثل قوله: ﴿ **فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ (الفجر: ١٣-١٤).

ونحو ذلك كثير في القسم المكي، وذلك ناتج من كون بيئة المكيين يغلب عليها القسوة والشدة والصلف، ولما كان المكيون أميين جهالاً فإننا قد وجدنا القرآن المكي نازلاً في مستواه العلمي، فهو ينفرد ويختص بقصر السور والآيات، ويخلو من التشريعات ومن المناظرات والبراهين العلمية والحجج، كما وجدناه يكثر فيه القَسَم بالمحسوسات كالليل والضحى والشمس والتين والزيتون؛ وذلك لأن الأذهان الساذجة الأمية تتعلق كثيرًا بالمحسوسات، ووجدنا به أشياء لا قيمة لها في الذكر ولا فائدة فيها كالحروف المقطعة في أوائل بعض السور مثل: ﴿ **طسم** ﴾،

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾، ﴿ الٓمٓ ﴾، ﴿ حمٓ ﴾، فهذه ونحوها قد أراد بها النبي في زعمهم مجرد التهويل والتخويف، وإظهار القرآن أمام هؤلاء الأميين بمظهر الرموز والطلاسم العميقة السخيفة، بينما وجدنا القسم المدني من القرآن قد امتاز بطول الآيات والسور وكثرة الأحكام والتشريعات والحجج والبراهين والمناظرات، كما نجده قد خلا من القَسَم بالمحسوسات، ومن السباب والتهديد والعنف والشدة، أي أنه كان أرفع في مستواه العلمي مستنيرًا في أسلوبه، وقد نشأ ذلك من كون محمد التقى بيئة جديدة مثقفة مستنيرة، وهي البيئة المدنية.

وقالوا كذلك: إن السبب في هذا التغيير الواضح والانقلاب الشامل الملحوظ في القسم المدني هو النبي ﷺ طرأ على دعوته تغيير كبير بعد هجرته إلى المدينة، إذ دخلت السياسة في الدين، ونمت أطماعه في الحكم والسلطان، فبعد أن كانت دعوته في مكة بالحكمة والموعظة الحسنة والمسالمة مع من لم يؤمن به وبدعوته، إذ به في المدينة يصبح داعية حرب ورجل دولة ومعاديًا محاربًا للكتابيين من اليهود والنصارى، بعد أن تخلى عن دعوته المكية، وانتقل إلى دعوة سياسية قومية عربية.

ونقول: ردًا على هذه الفئة الضالة وتلك الشرذمة الكاذبة، ونقضًا لكلامهم من أصله: إن دعوى انفراد القسم المكي بالعنف والشدة دعوى باطلة، إذ أن ما يسمونه بالعنف والشدة موجود في القسم المدني كما هو موجود في القسم المكي، وإليك الأمثلة: منها قوله تعالى في سورة البقرة المدنية: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤).

وقوله تعالى أيضًا في السورة نفسها: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٧).

وفيها كذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (البقرة: ٢٧٨).

وفي سورة آل عمران ـ وهي مدنية ـ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (11) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (آل عمران: ١٠-١٢).

وقد اشتمل القرآن الكريم بقسميه المكي والمدني منه على أنواع من الشدة والعنف في بعض أحيانه؛ لأن ضرورة التربية الرشيدة في إصلاح الأفراد والشعوب وسياسة الأمم والدول تقتضي أن يمزج المصلح في قانون هدايته بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والشدة واللين. ثم إن دعواهم انفراد المكي بالشدة والعنف يفهم منه دعوى انفراد المدني باللين والصفح، وخلو المكي من ذلك، وهذا مفهوم باطل كمنطوقه، وذلك لوجود ما بين السور المكية آيات كريمة تفيض لينًا وصفحًا، وتقطر سماحة وعفوًا، بل تنادي بمقابلة السيئة بالحسنة، اقرأ قول الله تعالى في سورة فصلت وهي مكية: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٣-٣٥).

وكذا قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (الشورى: ٣٦-٤٣).

وكما في قوله تعالى في سورة الحجر المكية: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي

وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر: ٨٧-٩٩).

وكذا قوله في سورة الزمر المكية: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣).

وغيرها كثير من السور المكية التي تفيض لينًا وعفوًا وصفحًا.

أما ما زعموه من أن في القسم المكي سبابًا، ويريدون بالسباب معناه عندهم من القحة و البذاءة والخروج عن حدود الأدب واللياقة، فهو إفك وافتراء منهم ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٥).

ونحن نتحداهم ونمعن في التحدي على أن يأتوا بمثال واحد في القرآن الكريم كله مكيه ومدنيه يكون من هذا اللون القذر الرخيص، وهل يعقل أن القرآن الذي جاء يعلِّم الناس الأدب والعلم والحلم يخرج هو عن أصول الآداب إلى السباب كيف وقد حرم الله على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءهم المشركين، فقال في سورة الأنعام المكية: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٨).

نعم إن في القرآن الكريم كله لا في القسم المكي وحده: تسفيهًا لأحلام المتنطعين، الذين يصمون آذانهم، ويغمضون أعينهم عن الحق، ويهملون الحجج والبراهين، وهو في ذلك شديد عنيف. بيد أنه في شدته وعنفه لم يخرج عن جادة الأدب، ولم يعدل عن سنن الحق ولم يصدف عن سبيل الحكمة بل الحكمة تقتضي أن يشتد مع هؤلاء؛ لأنهم يستحقون الشدة، ومن مصلحتهم والرحمة بهم والخير لهم أن يشتد عليهم؛ ليثوبوا لرشدهم، ويرعووا عن باطلهم، ويسيروا على

هدى الدليل والحجة. أضف إلى ذلك أن هذا التقريع الحكيم تجده في السور المدنية كما تجده في السور المكية، وإن كان في المكي أكثر منه في المدني؛ لأن أهل مكة كانوا أشداء العارضة، صعاب المراس، مسرفين في العناد والإباء، لم يتركوا بابًا من الشر إلا دخلوه على الرسول وأصحابه، ولم يكفهم أن أخرجوه من بلده وأهله ليلاً، بل وجهوا إليه الأذى في مهاجره. أما الدليل على أن في السور المدنية تقريعًا عنيفًا أيضًا عند المناسبات فكما جاء في سورة البقرة المدنية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: ٦-٧).

وفي شأن المنافقين في السورة نفسها قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٩-١٣).

فكل هذه الآيات مليئة بالتوبيخ والتعنيف لأولئك الأراذل من البشر، الذين ينفثون سمومهم في بقية الخليقة، ويفسدون المجتمع بسلاح ذي حدين هو سلاح النفاق والذبذبة، واقرأ كذلك في هذه السورة نفسها في شأن اليهود وآيات كثيرة من هذا الطراز تنقدهم، وتنعى عليهم جرائمهم، وتحمل عليهم حملة شعواء؛ تقبيحًا لجناياتهم وجنايات آبائهم من قبل، مثل قوله تعالى: ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ٦١).

ومثل قوله تعالى: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (البقرة: ٩٠).

ومثل قوله في شأن النصارى من سورة آل عمران المدنية: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ

إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٥٥-٥٦).

وقوله تعالى فيهم أيضًا في هذه السورة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ (آل عمران: ٩٠).

وأما السور والآيات التي استدلوا بها على ذلك السباب الذي زعموه ووصموا به القرآن الكريم في سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١).

فهذه السورة غاية ما اشتملت عليه أنها إنذار ووعيد لأبي لهب وامرأته، جزاء ما أساء إلى رسول الله ﷺ كما يدل عليه سبب نزول هذا السورة، فقد أخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن ابن عباس قال: لما نزل: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤). صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷺ : **«أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي»؟** قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا. قال: **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**.

فقال أبو لهب: تبًا لك ألهذا جمعتنا؟! فنزلت تلك السورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١).

وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس أن امرأة أبي لهب كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق الرسول ﷺ ، وروى عن ابن مجاهد أنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس، فهذه الأسباب مجتمعة تفيد أن السورة نزلت لمقابلة أبي لهب بما يستحق من إنذاره بالهلاك والقطيعة، وأن ماله لا ينفعه ولا كسبه، وأنه خاسر هو وامرأته، وأن مصيرهما النار وبئس القرار، ولا ريب أن في هذا الوعيد العنيف ردعًا له ولأمثاله، وتسلية لمن أصيب بأذاهم من الرسول

وأصحابه، وذلك هو اللائق بالعدالة الإلهية والتربية الحكيمة الربانية.

وأما سورة «آية والعصر ١» فليس فيها سباب، ولا ما يشبه السباب، وكل ما عرضت له أنها جعلت الناس قسمين قسمًا غريقًا في الخسران وقسمًا نجا وفاز من هذا الخسران، وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة المذكورة في تلك السورة: الإيمان الصادق والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، قال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (العصر: ١-٣).

فهل رأيت فيها ظلاً لسباب أو أثرًا لإقذاع، كلا ولكن القوم لا يستحيون.

وأما سورة ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ (التكاثر: ١). فكل ما تشير إليه أن المخاطبين قد شغلتهم الدنيا عن الدين، وألهتهم الأموال عن رب الأموال، حتى انتهت أعمارهم وهم على هذا الحال، فغدًا سيسألون عن هذا النعيم، ويعاقبون على إهمال شكره بعذاب الجحيم. فقل لي بربك في أي زاوية من زوايا هذه السورة تحس فيها بسباب أو تشعر فيها بإقذاع.

وأما قوله تعالى في سورة «والفجر»: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ (الفجر: ١٣). فهو حكاية لما حل بالأمم السابقة كعاد وثمود حين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد؛ ليكون من هذه القصص؛ وتلك الأخبار عبرة ومزدجر لأولئك الكفار، فلا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم؛ لأن سنة الله في الأمم واحدة، وميزان عدالته قائم في كل جيل وقبيل.

وقصارى القول أن القرآن الكريم قائم كله على رعاية حال المخاطبين، فتارة يشتد وتارة يلين؛ تبعًا لما يقتضيه حالهم، سواء المكي منه والمدني؛ بدليل إنك تجد في ثنايا السور المكية والمدنية ما هو وعيد وتسامح وتشديد وأخذ ورد وجذب وشد، كما سبق لك في الأمثلة والشواهد الكثيرة.

وأما ملاحظة أن أهل مكة كثر في خطابهم الشدة والعنف، فذلك لما مرنوا

عليـه من الأذى لرسول الله ﷺ وأصحـابه، والكيد لـهم حتى أخرجـوهم من ديارهـم، ولم يـكتفوا بذلك بـل أرسلوا إليهم الأذى في مـهاجرهم، لكـن القرآن الكريم كان في جملة مـا تناولهم به بعيدًا عن كل معاني الـسباب والإقذاع المزعوم فخاطـبهم بالحكمـة والأدب الكامل في الإرشاد والإقنـاع، حاثًا لهم على الـصبر والعفو والإحـسان، فانظر أيها الـعاقل كيف خاطب الـقرآن رسول الله ﷺ في سورة الأنعام المكية حين قال: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ (الأنعام: ٣٣-٣٦).

على أننا نـلاحظ أن في آفاق الآيات والسـور المكية ظاهرة باهـرة تُسكت كل معاند وتفـحم كل مكابر في هذا الموضوع، وهي: أن القسم المـكي قد خلا خلوًا تامًا من التشريع مـن قتال وجهاد ومخاشنة، كما خلت أيامـه في مكة على طولها من مقابلة القوم بمثل ما يأتون به من الأذى والمصاولة.

فلم يُسمع للمسلمين في تلك المدة صلـصلة لسيف أو قعقعة لسلاح أو زحف على عدو، إنما كانت أخلاقهم الصبر والعفو والمجاملة والمحاسنة بالرغم من إيغال الأعداء في أذاهم، ولجاجهم في عتوهم، وأساهم سـبًا وطعنًا وقتلاً ونهبًا ومعاترة ومصـاولة ومكابـرة، وأما زعـمهم أن القـسم المكي قـد اختـص بكل خصـائص الأوساط المنحطة فهو زعم باطل، ومـردود عليهم من كل باب دخلوه، وعلى أي وجه أرادوه؛ لأنهم إن أرادوا بذلك ما توهموه من انفراده بالشدة والعنف والسباب فقد عـلمت ما فيه مـن كذب وافتراء وجهـالة بما جاء في نظام القـرآن الكريم من ترغيب وترهيب في شطريه المكي والمدني على سواء.

وإن أرادوا بانـحطاطه الإشـارة إلى قـصر آيـاته، أو خلوه مـن الـتشريعـات

التفصيليـة العملية فهذا لا يدل على الانحطاط الذي زعـموه، بل إن قصر الآيات والخلو من التشريعـات لهما وجه آخر، فقصر الآيات والسـور في القسم المكي لم يكن قـانونًا شاملاً فـيه، فإن فيـه سورة الأنعام مـثلاً وهي طويلة، كـما أن طول الآيات والسور لـم يكن كذلك قانونًا فـي المدني، فإن فيه مـثلاً سورة: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ (النصر: ١). وهي قصيرة فكلامهم لا يسلَّم به على عمومه.

فإن أرادوا بذلك الـكثرة الغالبـة فهو صحيح غـير أنه لا يدل على مـا افتروه ورتبوه عليه، فإن قصر معظم السور المكـية وآياتها وطول معظم السور المدنية وآيها لا يقطع الصلة بين قسمي القرآن مكيه ومـدنيه ولا بين سور القرآن وآياته جميعًا، بل الصلة موجـودة بأجل معانيها كمـا يحسها كل صاحب ذوق سلـيم في البلاغة والبيان، فهي محكمة شائعة بين كافة أجزاء التنزيل.

وقد افتنَّ العلماء وأشـبعوا الحديث عن هذه المناسبـات، وما جاءت الآية بعد الآية والسورة بعد السورة إلا لما بينهما من شدة ارتباط وأوثق صلة، وتجد ذلك في غضون التفاسير العديدة لكتـاب الله على أننا نلاحظ بعض آيات مكية موجودة بين آيات سور مدنية ونلاحظ آيات مدنية، موجودة بين آيات سور مكية، وبالرغم من ذلك فلا يكاد أحـد يحس بأدنى تفاوت أو تفكـك أو تنافر أو انقطاع بينـهما، بل يروعك ما بين الجميع من جلال الوحدة وكمال الاتصال وجمال التناسق واتساق، مما يجعل القرآن كله على طوله سلسلة واحـدة، محكمة العُرى، متصلة الحلقات، وعقدًا رائعًا منتظـم الحبات، وقانونًا رصينًا مترابط المبـادئ والغايات، ثم إن قصر الآيات والسور المكية لا يدل على ما زعمـوه من اختصاص القسم المكي بالأوساط المنحطة، فإن هذا الزعم يدل على قصر الفـهم وضيق الأفق وتبلّد القريحة والجهل بقوانين البلاغة والفصاحة في الكلام العزيز، فالقصر في السور والآيات مظهر من مظاهر الإيجاز، والإيجاز مـظهر رقى المخاطب، وآية فهمه وذكائه، بـحيث يكفيه من الكلام موجزه، ومـن الخطاب أقصره، أما من كان دون ذلك ذكاء وفـهمًا فلا سبيـل إلى إفادته إلا بالإسهـاب والبسط، إن لم يكـن بالمساواة والتوسـط، ولهذا

المعنى جاء القسم المكي قصيرًا موجزًا في معظمه، وجاء القسم المدني طويلاً مسهبًا في أكثره، ويرجع ذلك إلى أن القرشيين كانوا في مكة في ذروة القبائل العربية في الذكاء والألمعية والفصاحة والبلاغة والشرف والشجاعة، فلا بدع أن يخاطبهم القرآن بالقصير من سوره وآياته؛ رعاية لحق قانون البلاغة والبيان، ولا يقدح في مزايا المكيين هذه بأنهم كانوا أميين لم يستنيروا بثقافة المدنيين، فإن للثقافة والاستنارة ميدانًا وللذكاء والتمهر في البيان ميدانًا، وأهل المدينة لم يكونوا على استنارتهم ليبلغوا شأن قريش في تلك الخصائص والمزايا، وقد كان منهم أهل كتاب درجوا على أن لا يستفيدوا إلا بالتطويل ولا يقتنعوا إلا ببسط الكلام، ومن هنا تعلم بطلان كذبهم وافترائهم حين قالوا إن القرآن كان في المكي كذا وفي المدني كذا نتيجةً لتأثر محمد بانحطاط أهل مكة في القسم المكي، واستنارته بأهل المدينة في القسم المدني، حتى جاء قرآنه قصيرًا في الأول طويلاً في الثاني.

وأما قولهم: إن القسم المكي في القرآن قد خلا من التشريع والأحكام، فهو قول باطل أيضًا ومردود عليهم؛ لأن القسم المكي لم يخلُ جملة من التشريع والأحكام، بل عرض لها وجاء عليها، ولكن بطريقة إجمالية، وذلك أن مقاصد الدين خمسة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال.

وقد تحدَّث القسم المكي عن ذلك إجمالاً، فاقرأ إن شئت قوله تعالى في سورة الأنعام المكية: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

فهذه ثلاث آيات جمعت الوصايا العشرة لهذه المقاصد الخمسة التي هي أساس الدين.

ولا يخفى عليك أن آيات العقائد في القسم المكي ظاهرة واضحة، وكثيرة شائعة، وأما كثرة التفاصيل في تشريع الأحكام بالمدنية فليس نتيجة لزعمهم الباطل، بل هو أمر لابد منه في سياسة الأمم وتربية الشعوب وهداية الخلق، ذلك أن الطفرة حليفة الخيبة والفشل، والتدرج حليف التوفيق والنجاح، وتقديم الأهم على المهم واجب في نظر الحكمة؛ لهذا بدأ الله عباده في مكة بما هو أهم فبدأهم بإصلاح القلوب وتطهيرها من الشرك والوثنية، وتقويمها بعقائد الإيمان الصحيح والتوحيد الواضح، حتى إذا استقاموا على هذا المبدأ القويم، وشعروا بمسئولية البعث والجزاء، وتقررت في نفوسهم هذه العقائد الراشدة فَطَمَهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق، وقادهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات، ثم كلفهم بما لابد منه من أمهات العبادات، هذا ما كان بمكة.

ولما مرنوا على ذلك وتهيأت نفوسهم للترقي والكمال بمرور الأيام والسنين - وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة - جاءهم بتفاصيل التشريع والأحكام، وأتم عليهم نعمته ببيان دقائق الدين وقوانين الإسلام، ومثل ذلك ما اتفق عليه الناس قديمًا وحديثًا في سياسة التعليم: من أنهم يلقنون البادئين في مراحل التعليم الأولى أخف المسائل وأوجزها فيما يشبه قصار السور ومختصر القصص، حتى إذا تقدمت بهم السن وتوفر لهم الاستعداد وعظم تلاطمت بهم بحور التعليم، ثم فهموا واستناروا ، فكهذا كان «تدرج» نزول القرآن على خلق الله وسياسته في تعليمهم.

أما ما زعموه من أن القسم المدني قد جاء مليئًا بالتشريع وتفاصيل الأحكام وكان ذلك نتيجة لاختلاط محمد بأهل المدينة من الكتابيين المثقفين المستنيرين،

فهذا ينقضه أن القرآن قد جاء ليصلح عقائد أهل الكتاب وأخطاءهم في التشريع، وفي التحليل والتحريم، وفي الأخبار والتواريخ، سواء كانوا في المدينة أو غيرها، فكيف يأخذ المصيب من المخطئ؟! وكيف يتلقى الأستاذ عن التلميذ؟! فما يقول بذلك عاقل، ثم اقرأ إن شئت قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤-٦٥).

وقوله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٣).

وقوله جلت قدرته في سورة المائدة: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة: ٤٥).

وغيره كثير من الآيات الدالة على ذلك. على أن ما زعموه لو كان صحيحًا لظهر أثر ذلك من أهل الكتاب المدنيين وثقافتهم فيمن حولهم من عرب أهل المدينة وفيمن حولهم من أهل مكة وآفاق الجزيرة، ولكانوا هم الأولى بهذه النبوة والرسالة، ولسبق محمدًا إليها كثير غيره من فصحاء العرب وتجار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب في المدينة والشام أيما اختلاط، ثم إن القرآن كما سبق قد تحدى جميع العرب من مكيين ومدنيين، بل البشرية جمعاء، بل والإنس والجن، فهلا كان أساتذة محمد أولئك المزعومون يستطيعون أن يجاروه، ولو في مقدار سورة قصيرة واحدة، كلا وألف كلا فما استطاعوا وما فعلوا.

وأما قولهم: «إن القرآن قد أكثر في القسم المكي منه بالقسم بالمحسوسات؛ لتأثره بالبيئة في مكة؛ لأن القوم فيها كانوا أميين لا تعدو مداركهم حدود المحسوسات». فهذا قول باطل ومردود بما قدمنا من أن أهل مكة كانوا أرقى ذوقًا وأعلى كعبًا وأعظم ذكاء من أهل المدينة، وأن الخطاب معهم كان ملحوظًا فيه

اشتماله على أسرار وخصائص لا يدركها إلا المتفوقون في صناعة البيان وفصاحة اللسان، فلا يستقيم إذن ما زعموه من أن مدارك أهل مكة كانت لا تعدو المحسوسات، والتاريخ خير شاهد على امتياز أهل مكة عن سائر القبائل على عهد نزول القرآن، ثم إن القَسَم بالمحسوسات في القرآن الكريم كالضحى والليل والشمس والتين والزيتون وغير ذلك مما أقسم به ليس منشؤه انحطاط القوم كما زعموا، إنما منشؤه مراعاة مقتضى حال المخاطبين، وذلك أن القرآن كان وقتئذ بصدد علاج أفحش العقائد فيهم، وهي عقيدة الشرك وعبادة الأصنام، ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة إلا بلفت عقولهم إلى ما في الكون من شئون الله ومخلوقاته وإلا بفتح عيونهم على طائفة كبيرة من نعم الخالق المحيطة بهم؛ ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده، مادام هو الخالق وحده قال عزّ من قائل: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ (النحل: ١٧-١٨).

فعرضُ بعض المخلوقات على أنظار الجاحدين بالتوحيد بعد إقرارهم أن ليس لها خالق إلا الله إلزامٌ لهم بطرح الشرك وتوحيد الخالق، وهذا مطمح نبيل أجاد القرآن في أساليب عرض نعم الله عليهم من أجله، ومن هنا أقسم الله بما أقسم به من الأمور المحسوسة كما ذكرنا من الضحى والليل وغيره، ومن الأمور المعنوية كالقسم بالقرآن في مثل قوله تعالى: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (يس: ٢-٤).

فحلف القرآن بأمثال هذه المحسوسات ليس دليلاً على سذاجة المخاطبين وانحطاطهم، وليس بالتالي سبيلاً إلى الطعن في القرآن بأنه من كلام محمد المتأثر بانحطاط البيئة، كما يرجف المرجفون ويختلق الأفاكون.

على أن القَسَم بهذه الأشياء فيه إشارة إلى الأسرار العظيمة التي وضعها الله في تلك الأمور التي أقسم بها حتى يصح أن يكون مقسمًا بها، وتلك الأسرار لا يدركها إلا اللبيب الفاهم؛ لأنها غير مشروحة ولا مفسرة في القرآن، فارجع إلى أسرار القسم بها في كثير من كتب التفسير المطولة إن شئت والله يرشدك.

أما قولهم: «إن القسم المكي في القرآن قد اشتمل على لغو من الكلام في كثير من فواتح السور، مثل: ﴿الٓمٓ﴾ (البقرة:١)، ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ (مريم:١). ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ (الشورى:١-٢). وذلك يتنافى مع دعوى المسلمين بأن القرآن بيان للناس وهدى، وأنه كلام الله، فأي بيان وأي هدي في هذه الحروف المتقطعة، وتلك الطلاسم الغامضة؟ فما هي إلا ألفاظ من وضع كتبة محمد من اليهود؛ تنبيهًا على انقطاع كلام واستئناف آخر، أو يكون قصد منها التعمية أو التهويل أو إظهار القرآن في مظهر عميق مخيف». وهذا أيضًا قول باطل من أصله لأسباب عدة:

أولاً - أن الرسول ﷺ لم يكن له كتبة وحي من اليهود أبدًا، فكتبة الوحي مشهورون غاية الشهرة، وهم جميعًا من أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم، وها هو التاريخ حاكم عَدْل لا يرحم ولا يحابي أحدًا، وهو يشهد بذلك فليسألوه إن كانوا صادقين.

ثانيًا - أن اشتمال القرآن على كلمات غير ظاهرة المعنى لا ينافي وصفه بأنه بيان للناس وهدى ورحمة، فإن هذه الأوصاف يكفي في تحقق ثبوتها للقرآن باعتبار جملته ومجموعه لا باعتبار تفصيله.

ثالثًا - أن للعلماء في تفسير فواتح تلك السور أقوالاً عديدة وآراء سديدة:

أولها - أن المعنى المقصود منها أمر غير معلوم لنا فهي من المتشابه الذي استأثر الله - عزَّ وجلَّ - بعلمه، ولم يُطْلع عليها أحدًا من خلقه، وذلك لحكمة سامية هي ابتلاؤه سبحانه وتمحيصه لعباده؛ حتى يميز الخبيث من الطيب وصادق الإيمان من المنافق، بعد أن أقام لهم أعلام بيانه ودلائل هدايته وشواهد رحمته في غير تلك الفواتح من كتابه العزيز بين آيات وسور كثيرة، لا تعتبر تلك الفواتح في جانبها إلا قطرة من بحر، فأما الذين آمنوا فيعلمون أن هذه الفواتح حق من عند ربهم، ولو لم يفهموا معانيها؛ ثقةً منهم بأنها صادرة من لدن حكيم عليم.

وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله.

ثانيهما - أن المعنى المقصود منها أن فاتحة كل سورة اسم لتلك السورة التي افتتحت بها، واستدلوا بآثار تؤيد ذلك منها ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: **«يس قلب القرآن»**، وقوله: **«من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح»**.

ثالثها - أنها نزلت للإعجاز، ولبيان أن المقصود من ذلك هو إفهام المخاطبين أن الذي سيُتلى عليهم من الكلام الذي عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله إنما تركب من مثل هذه الحروف التي في الفواتح وهي معروفة لهم.

رابعًا - أن المقصود منها تنبيه السامعين وإيقاظهم، وذلك أن قرع السمع في أول الكلام بما يعي النفوس فهمه من غرائب الأمور، دافعٌ لها على أن تصغى وتتيقظ وتتأمل وتزداد إقبالاً، فهي كوسائل التشويق التي تعرض في مقدمة الدرس على منهج التربية الحديثة في التعليم.

وقال بعضهم: إن هذه الحروف ليست بِدْعًا في القرآن، ولا نزلت هملاً فيه، إنما هي جاءت موافقة لبعض اصطلاحات اليهود والنصارى في كتبهم.

فاليهود كانوا أيام نزول القرآن يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجُمَّل المعروفة اليوم في الحروف العربية فيجعلون الألف بواحد والباء باثنين والجيم بثلاثة والدال بأربعة، وهكذا مارين على الحروف الأبجدية إلى الياء بعشرة والكاف بعشرين، وهكذا إلى القاف بمائة والراء بمائتين، وهكذا إلى الغين بألْف، فقديمًا كان استعمال الرموز في أهل الديانات والكتب السماوية تصرح تارة وترمز أخرى، والرموز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني والمغازي الشريفة. والقرآن كتاب سماوي جاء بما جاءت به الكتب قبله، فكيف يعجبون من وجود تلك الحروف في القرآن، وهي موجودة في كتبهم واصطلاحاتهم، وقد دلت بنفسها دلالةً واضحةً على نبوة محمد ﷺ وصدقه فقد نطق بها، وهي أسامي للحروف مع أنه أمي

لم يقرأو ولـم يكتب، ومن المعروف أن النـطق بأسامي الحروف من شـأن القارئ المتعلم وحـده، لا سبيل للأمي إلى مـعرفتها ولا النطق بـها، فإتيان محـمد بها وترديده لها دليل مادي عـلى أنه لا يأتي بهذا القرآن من تلقاء نفـسه إنما يتلقاه من لدن حكيم عليم، ثم إن اسـتعمال الرموز هذه موجود كذلك عـند النصارى، فقد اتخذوا من الحروف رموزًا دينية معروفة فـيما بينهم أيام نزول القرآن فكانوا يرمزون بلفـظ «أكسيـس» لهذه الجـملة «يســوع المسيــح ابن الله المخلّص»، فـالألف من أكسـيس هي الحرف الأول مـن لفظ «يسـوع» والكاف هي الحرف الأول مـن لفظ «كرتسوس» المسيح وهكذا باقي الحروف.

فإذا كان هـذا من طبائع الأمم التي أحـاطت بالبلاد العربـية وتغلغلت فـيها، ونزل القـرآن لجمـيع الناس من عـرب وعجم كـان لابد أن يكون القـرآن منهـجًا تستسيغـه الأمم، ويكون مما يألفون ويفهمون، على أن النسـبة بين الرموز التي في فواتح السور وبين رموز الجمل عند اليهود ورموز النصارى نسبة ضئيلة جدًا، وبهذا يتبين لك بطلان اعتراض هؤلاء الملحـدين على هذه الحروف وتلك الرموز، وإليك دليلاً قاطعًا يثبت لك أنهم كانوا يستعملون تلك الرموز في حساب الجُمَّل عندهم.

قال ابن عـباس ﵄ «مر أبو ياسـر بن أخطب برسول الله ﷺ وهـو يتلو سورة البقرة: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١-٢). ثم أتى أخوه حيي بن أخطب وكعـب بن الأشرف فسألوه عن ﴿ الٓمٓ ﴾. وقالوا: ننشدك الله الذي لا إله إلا هو أحق أنها أتتك من السماء. فقال النبي ﷺ: **«نعم كذلك نزلت»**. فقال حـيي: إن كنت صادقًـا إني لأعلم أجل هذه الأمة مـن السنين، ثم قالوا: كيف ندخل في دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجُمَّل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة. فضحـك النبي ﷺ فقال حيي: فهل غير هذا؟ فقال: نعم **«المص»** فقال حيـي: هذا أكثر من الأول هذا مائة وإحـدى وستون سنة فهل غير هذا؟ قال: نعم **«الر»**. فقال حيي: هذا أكثـر من الأول، والثاني، فنحن نشهد إن كنت صادقًـا ما ملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سـنة. فهل غير

هذا؟ فقال: نعم «المر» قال حيي فنحن نشهد أنا من الذين لا يؤمنون، ولا ندري بأي أقوالك نأخذ، فقال أبو ياسر: أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة، ولم يبينوا أنها كم تكون، فإن كان محمد صادقًا فيما يقول إني لأراه سيجتمع له هذا كله فقام اليهود. وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندري أبالقليل نأخذ أم بالكثير؟» فبهذا وغيره تعرف أن حساب الجُمَّل طريقة كانت متعارف عليها عند اليهود، وهو نوع من الرموز الحرفية، فكانت هذه الحروف لابد من نزولها؛ ليأخذ في فهمها كل مأخذ ويذهب الفكر فيها كل مذهب، وقد ذهب العلماء في معنى هذه الحروف مذاهب شتى، وأكثروا فيها القول، ولا مجال لسرد ما قالوه في هذا المختصر.

وأما قولهم: «إن القسم المكي في القرآن قد خلا من الأدلة والبراهين». فنقول لهم: لا إنه مليء بالأدلة، مدعم بالحجج والبراهين، حافل بأقوى وأعظم الأدلة على عقيدة الإسلام في الإلهيات والنبوات والسمعيات فأنصت إليه في سورة «المؤمنون» المكية، وهو يرفع قواعد التوحيد ويزلزل بنيان الشرك، إذ يقول: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١).

ويقول في سورة الأنبياء المكية: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢-٢٤).

ثم اقرأ قوله تعالى وهو يدلل على نبوة محمد ﷺ في سورة العنكبوت المكية إذ يقول: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا

أنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨-٥١).

وقوله في سورة ق المكية: ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾. الآيات إلى قوله ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١-١٦).

ثم قوله في سورة المؤمنون المكية: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

ثم تدبر هذه الآيات التي أقامها لتقرير اقتداره على البعث بعد الموت، وانظر إليه حين يقيم الدليل العقلي على البعث والجزاء؛ إذ يقول في سورة السجدة المكية: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ⑱ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑲ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ (السجدة: ١٨). إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (السجدة: ٢٢). إلى غير ذلك من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة التي لا تكاد تخلو منها سورة من السور المكية، فكيف يصح لهؤلاء المضلين القول بعد ذلك بأن القسم المكي قد خلا من الأدلة والبراهين؟! ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٥).

الشبهة الثانية في هذا الباب: هي قولهم: إن القرآن يثبت أن دعوة محمد ليست عامة للإنسانية، بل هي قومية عربية، وانتشارها بين غير العرب إنما هو نتيجة الفتح الذي قام على أساس من الأطماع السياسية والاقتصادية. ومما استدلوا به على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الأنعام: ٩٢).

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ الآية (الأنعام: ١٥٤-١٥٧).

وقوله في سورة يونس: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ (يونس: ٤٧).

وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف: ٣).

وقوله في سورة إبراهيم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ (إبراهيم: ٤).

وفي سورة النحل: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ٨٩).

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (الشورى: ٧).

وقوله تعالى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٣-٤٤).

وقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

وقوله في سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

أما الشبهة الثالثة في هذا الباب: فهي في إعجاز القرآن. زعموا أن إعجاز القرآن إنما هو في نظمه فقط، ولكن المسلمين ذهبوا يلتمسون للقرآن الشمول من كل وجه، وحاولوا أن يجدوا فيه إعجازًا إلهيًا في العقيدة وفي الشريعة وفي

الفلسفة وفي العلم الحديث، مع أن التاريخ الإسلامي يجهل مثل هذا التفكير ومثل هذه المحاولات، والقدماء من المسلمين أجمعوا على أن إعجازه هو في نظمه فحسب.

ونقول رداً على هذه الشبهة: من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية[1] مع شيء من التحوير والتعديل في العبارة والاختصار في ذكر الأدلة، يقول - رحمه الله - إن القرآن الكريم لم يثبت فيه خصوصية لرسالة محمد ﷺ بالعرب دون غيرهم من بقية البشر، بل على العكس فقد أثبت عمومها لجميع البشر كافة عامة، بل للإنس والجن، وذلك بالنصوص الصريحة نقلاً وبالأدلة العقلية التي لا يستطيع عاقل إنكارها. فأما قول هؤلاء المبطلين المعطلين من المبشرين والملحدين ومن سار على نهجهم من أنها خاصة بالعرب وهم غير مطالبين باتباعها فهو قول باطل، واستدلالهم بالآيات التي أوردوها أعظم منه بطلانًا، ولا حجة لهم في هذه الآيات، وإنما يدل ذلك على سوء فهمهم وخبث طويتهم وقصور عقولهم وضيق أفقهم في فَهْم هذه الآيات، على أننا نقول لهؤلاء القوم الذين ادعوا ذلك من يهود أو نصارى أو دهريين أو ملحدين أو غيرهم نعم إن محمداً ﷺ قد أرسل إلى جاهلية العرب وبلسانهم، لكن كانت رسالته عامة إلى جميع الأمم من عجم وعرب، بل للثقلين جميعًا، وادعاؤهم أنهم غير مطالبين باتباعه فهذه الأخرى دعوى باطلة وهي ذات شقين.

الأول - إما أن يقولوا: إنه بنفسه لم يدّع أنه أرسل إليهم، ولكن أمته هي التي ادّعت له ذلك، وإما يقولوا: إنه ادّعى أنه أرسل إليهم وهو كاذب في هذه الدعوى. وكلامهم في أول كتاب ابن تيمية «الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح» يدل على الشق الأول، وفي آخره قد يقال إنهم أشاروا في كلامهم إلى الشق الثاني، لكنهم في الحقيقة لم ينكروا رسالته إلى العرب، وإنما أنكروا رسالته إليهم.

---

(١) انظر «الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح».

فأما رسالته للعرب فلم يصرحوا بتصديقه فيها ولا بتكذيبه، وإن كان ظاهر ألفاظهم يعطي تصديقهم له فيما يوافق أقوالهم، وتكذيبه فيما يخالفها، ونحن نقول: إنه لا يصح لهم الاحتجاج على ما قالوه أو على صحة دينهم بشيء مما جاء به النبي ﷺ ولا بشيء من القرآن بأي وجه من الوجوه، وكذلك كتب الأنبياء المتقدمين التي يحتجون بها فهي حجة عليهم، وليس فيها حجة لهم ولو لم يبعث محمد ﷺ لجميع الأمم، وينص القرآن بصريح آياته على أن من يطلب دينًا غير دين الإسلام فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، وأن هذا الدين قد نسخ وأبطل كل ما قبله من الأديان، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (آل عمران: ٨٥). وقوله: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ (آل عمران: ١٩).

أي ما اختلفوا في الدين الإسلامي إلا من بعد ما علموا أنه يجب عليهم الدخول فيه بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم من قبل؛ وذلك لمجرد البغي والحقد والحسد، فكيف والكتاب الذي جاء به موافق لسائر كلام الأنبياء - عليهم السلام - في إبطال دعواهم وقولهم بالتثليث؟! ثم إن الكتب السماوية كلها قد جاءت أول ما جاءت به هو توحيد الله - عزَّ وجلَّ - وأنه لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ولم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولم يكن له شريك في خلقه ولا في ملكه، قال تعالى: ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٩١).

على أن ما جاء به محمد ﷺ وما جاءت به الأنبياء قبله وصريح العقل كلها براهين قطعية تدل على فساد عقيدتهم، وأنه لا يصح لهم الاحتجاج بما جاء به محمد ﷺ؛ لأنه لا يجوز أن يحتج بكلام محمد ﷺ لمن يكذبه في كلمة مما جاء به، وكذلك كلام سائر الأنبياء، ونقول لهم - على كل تقدير سواءً أقروا

بنبوته إلى العرب أو إلى غيرهم، أو كذبوه في قوله أو سكتوا عن هذا وذاك، أو صدقوه في بعض ما قال دون بعض: إن احتجاجهم على صحة ما يخالفون فيه المسلمون مما جاء به محمد ﷺ لا يصح بوجه من الوجوه، فقولهم: إنه لم يرسل إليهم بشيء من القرآن قول باطل؛ إذ أن الكتب السماوية التي نزلت قبله نصَّت على نعوته وأوصافه، وأمرت مَنْ يدركه باتباعه، فلا حجة لهم بشيء منها، بل كلها مع المعقول حجةٌ عليهم، وهذا بخلاف المسلمين فإنه يصح احتجاجهم على أهل الكتاب جميعًا بما جاءت به الأنبياء قبل محمد ﷺ، لأن المسلمين يقرون بنبوة موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء - عليهم السلام -، وعندهم يجب الإيمان بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي أرسله، وهذا أصل دين المسلمين فمن كفر بنبي واحد أو بكتاب واحد فهو عندهم كافر، بل من يسب نبيًا من الأنبياء فهو كافر مباح الدم قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٣٦-١٣٧).

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ (البقرة: ٢-٣). الآية.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ (البقرة: ٤).

فقد فصل القرآن بعد أن أجمل؛ لئلا يظن ظان أن مجرد دعوى الإيمان بالغيب ينفع وإن لم يؤمن بما أنزل على محمد وعلى من قبله، فالإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان بجميع ما أنزل الله، فالمسلمون لا يجيز أحد منهم تكذيب شيء مما أنزل على مَنْ كان قبل محمد ﷺ، لكن الاحتجاج به يحتاج إلى ثلاثة أمور:

١ - ثبوت ذلك عن الأنبياء.

٢ ـ صحة ترجمته إلى اللسان العربي أو اللسان الذي يخاطب به؛ لأن كلام هذه الكتب كان بالعبرانية.

٣ ـ تفسير ذلك ومعرفة معناه، لهذا كان المسلمون لا يكذبون بشيء مما جاء به أحد الأنبياء، لكن قد يكذبون الناقل عنهم، أو من يفسرون المنقول عنهم بما أرادوه بمعنى آخر على وجه يخالف معناه الحقيقي، وهذا بخلاف تكذيب نفس النبي فإنه كفر صريح.

أما أهل الكتاب فقد تبين أنه لا يتم مرادهم إلا بتكذيبهم ببعض ما أنزل الله، ومتى كذب الإنسان بكلمة واحدة مما أخبر به من قال إنه رسول الله بطل الاحتجاج بسائر كلامه؛ لذلك كانت حجة هؤلاء التي يحتجون بها داحضة، لأن الذي يقول: إنه رسول إما أن يكون صادقًا في جميع ما يخبر به عن الله، وإما أن يكون كاذبًا ولو في كلمة واحدة. فإن كان صادقًا امتنع أن يكذب على الله في شيء مما يبلغه عن الله، فإن من كذب على الله ولو في كلمة واحدة كان ممن افترى على الله الكذب، ولم يكن رسولاً من رسل الله، ويكون من المتنبئين الكذابين، ومثل هذا لا يجوز أن يحتج بخبره عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإن كان كاذبًا ولو في كلمة واحدة أو مشكوكًا في صدقه فيها امتنع مع ذلك أن يقروا بأنه رسول الله، وكان احتجاجهم بما قاله كاحتجاجهم بما قاله كل المتنبئين الكذابين أو المشكوك في صدقهم، ومعلوم أن من عرف كذبه على الله أو شُكَّ في صدقه عُلم أنه ليس برسول الله، بل عُرف كذبه كما عرف كذب مسيلمة الكذاب وسجاحي والأسود العنسي وطليحة الأسدي، وكما عرف كذب «ماني» وأمثاله من المتنبئين الكذابين كذلك من يُشك في صدقه بأنْ صدر منه الكذب ولو خطأ لم يجز تصديقه في سائر ما يخبر به عن الله؛ لأن الرسول إنما يكون رسولاً إذا كان صادقًا لا يكذب، كما يستحيل عليه الخطأ لأنه معصوم، فإن كل مَنْ أرسله الله لابد أن يكون صادقًا في كل ما يبلغه عن الله، وهذا أمر اتفق عليه كلهم المسلمون واليهود والنصارى وغيرهم ممن أُنزل إليهم كتاب، فقد اتفقوا الناس كلهم جميعًا على أن

الرسول لابد أن يكون صادقًا معصومًا فيما يبلغه عن الله، فلا يكذب على الله لا خطأ ولا عمدًا، فإن مقصود الرسالة لا يحصل بدون ذلك، كما قال موسى لفرعون: ﴿ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ (الأعراف: ١٠٤-١٠٥). وفي رواية: ﴿ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ (الأعراف: ١٠٥). وكذلك قوله تعالى عن خاتم الأنبياء: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ (الحاقة: ٤٤-٤٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (يونس: ١٥).

وأيًا ما كان فإن المقصود هنا أن احتجاجهم بما أوردوه لا يصح بوجه من الوجوه؛ لأنه إن كان رسولاً صادقًا في كل ما جاء به، فقد علم أنه جاء بما يخالف عقائد هؤلاء، وأنه أرسل إلى الناس جميعًا، كما ثبت ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وإن قالوا في كلمة واحدة مما جاء به إنها باطلة فقد كذبوه، ومتى كذبوه أو شكوا في كلمة واحدة كانوا مكذبين له في قوله: ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾. وكان كاذبًا في تبليغ ما أنزل إليه، ومن كان كاذبًا في قوله: إني رسول الله لم يكن من الأنبياء والمرسلين، ولم يكن قوله حجة ألبتة، وعلى هذا تبين أنه إن لم يقروا لمن ذكر أنه رسول الله بأنه صادق في كل ما يبلغه عن الله، معصوم من الكذب عمدًا أو خطأ لم يصح لهم الاحتجاج بقوله، وهذا الأصل يبطل قول عقلاء أهل الكتاب ومن سار على نهجهم من الملحدين والمبطلين، ويكون لقول جهالهم أعظم إبطالاً، على أن أكثر عقلاء أهل الكتاب يعظمون محمدًا ﷺ ويجلونه لما دعا إليه من توحيد الله - عزَّ وجلَّ - ولما نهى عنه من عبادة الأوثان، ولتصديقه التوراة والإنجيل والمرسلين قبله، ولما ظهر من عظمة القرآن الذي جاء

به، ومحاسن الشريعة التي جاء بها، وفضائل أمته التي آمنت به ولما ظهر عليه من الآيات والمعجزات والبراهين، لكن للأسف مع ذلك كله يقولون: إنه بعث إلى غيرنا، ونحو ذلك مما قالوه من أنه ملك عادل، وله سيادة عادلة، وقد حصَّل علومًا من أهل الكتاب وغيرهم، ومهما قالوا من ذلك المدح وتلك الصفات الحميدة فإنهم لا يكونون بذلك مؤمنين به، ولا يسوغ لهم ما قالوه: «من أنه أرسل إلى العرب خاصة» فإنه قد عرف بالتواتر الذي يعلمه جميع الأمم من جميع الطوائف أنه قال ﷺ : إنه رسول الله إلى جميع الناس، وأن الله أنزل عليه القرآن، وأنه أرسله الله هدىً ورحمةً للناس كافة، بل للإنس والجن، فضلاً عن اليهود والنصارى وغيرهم من عجم وعرب، فإن كان صادقًا في قوله فإن من كذّبه في كلمة واحدة فهو كافر.

وإن لم يكن صادقًا فيما يقول فقد كذب على الله، ومن كذب على الله لم يكن رسولاً، فلا يحتج بشيء من أقواله، فإن قالوا نحن نقصد بذلك بيان تناقضه، وأن كلامه يناقض بعضه بعضًا، فنقول لهم: وهذا أيضًا يستلزم أنه ليس رسولاً فلا يصح لكم الاحتجاج بشيء مما جاء به، وإن كان ـ ولله الحمد والمنّة ـ قوله ﷺ يصدق بعضه بعضًا ويصدق قول الأنبياء قبله، وأن قولهم جميعًا يصدق صريح العقل فلا يتناقض شيء من الحق المعلوم بسمع أو عقل، إذا تبين هذا نقول بعد ذلك لمن قال إن محمدًا قد أرسل إلى العرب وحدهم دون غيرهم من أهل الكتاب لا فإنه من المعلوم بالضرورة لكل من علم أحواله وبالنقل المتواتر الذي هو أعظم تواترًا مما ينقل عن موسى وعيسى وغيرهما وبالقرآن المتواتر عنه ﷺ وبسنته المتواترة وسنة خلفائه الراشدين من بعده أنه ﷺ ذكر أنه أرسل إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى كما ذكر أنه أرسل إلى الأميين من العرب وغيرهم، بل ذكر أنه أرسل إلى جميع بني آدم عرب وعجم من الروم والفرس والترك والهند والبربر والحبشة وسائر الأمم، بل أنه أرسل إلى الثقلين الإنس والجن جميعًا، وهذا كله من الأمور الظاهرة المتواترة عنه ﷺ ، والتي اتفق على نقلها

عنه أصحابه مع كثرتهم وتفرق ديارهم وأحوالهم، وقد صحبه عشرات الألوف ممن لا يحصى عـددهم على الحقيقة إلا الله تـعالى، ونقل ذلك عنهم التـابعون، وهم أضعاف أضعاف الصـحابة عددًا، ثم نقل ذلك عنهم قرنًا بعـد قرن إلى زماننا مع كثرة المسلمين وانتشارهم في مشـارق الأرض ومغاربها، وقد أخبر المعصوم ﷺ عن ذلك قـبل أن يكون، فقـال في الحديث الصـحيح: **«زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»**.

وكان كما أخبر فبلغ ملك أمته طرفي المعمورة مشرقًا ومغربًا، وانتشرت دعوته في وسط الأرض، كالإقليم الثالث والرابع والخامـس يعني في الجزيرة العربية وما حولهـا من مناطق الشـرق الأوسط، وذلك لأنهم أكمـل الناس عقولاً وأخـلاقًا، وأعدلهـم أمزجة بخـلاف طرفيهـا جنوبًا وشمـالاً، فهؤلاء قـد نقصت عقـولهم وأخلاقهم وانحرفت أمزجتهم.

أما أهـل الجنوب فإنه لـقوة الحرارة احـترقت أخلاطـهم، فاسودت ألـوانهم وتجعدت شعورهم، وأما أهل الشمال فلشدة البرد لم تنضج أخلاطهم، بل صارت فجة، فأفرطوا في سبوطة الشعر والبـياض البارد الذي لا يستحسن؛ ولهذا لما ظهر الإسلام غلب أهله علـى أوسط المعمورة، وهم أعدل بني آدم وأكمـلهم، كما أن النصـــارى الذين تربوا تحت ذمة المـسلمين أكمل من غـيرهم من باقي الـنصارى عقولاً وأخلاقًا.

وعلى كل حال فإن المقصود هنا أن محـمدًا ﷺ هو نفسه دعا أهل الكتاب من اليهود والنـصارى إلى الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به، كمـا دعا من لا كتاب لهم من العرب وسائر الأمم، وهو الذي أخبـر الله تعالى بكفر من لم يؤمن به من أهل الكتاب وغيـرهم، قال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا**﴾ (الفتح: ١٣).

وهو الذي أمر بجهادهـم وقتالهم إن لم يؤمنوا به، فقد دعاهـم بنفسه ونوابه إلى هذا الإيمان، وحينئذ فقولهم إنه لم يـأت إلينا، بل إلى جاهلية العرب، وسواء

أرادوا بذلك أن الله بعثه إلى العرب فقط، أو أرادوا أنه ادّعى أنه أرسل إلى العرب، فقد علم جميع الطوائف أن محمدًا ﷺ قد دعا اليهود والنصارى إلى الإيمان به، وذكر أن الله أرسله إليهم وأمره بجهاد من لم يؤمن به منهم.

أما اليهود فإنهم كانوا جيرانه في الحجاز وفي المدينة وما حولها وخيبر وغيرها. فالمهاجرون والأنصار كلهم آمنوا به من غير سيف ولا قتال، بل لما ظهر لهم من براهين نبوته ودلائل صدقه آمنوا به، وقد حصل لهم من الأذى في سبيل هذا الإيمان ما هو معروف في كتب السيرة الصحيحة والتفاسير المعتمدة، وقد آمن به في حياته كثير من اليهود والنصارى، بعضهم من مكة وبعضهم بالمدينة وكثير منهم في غير مكة والمدينة، واقرأ - إن شئت - قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:١٤٦).

فحينما نزلت هذه الآية قال عبد الله بن سلام: والله لقد عرفت محمدًا - أي بأوصافه ونعوته في التوراة والإنجيل - وأنه نبي حقًا كما أعرف ابني ومعرفتي لمحمد أشد، هذا فلما قدم ﷺ إلى المدينة عاهد لمن لم يؤمن به من اليهود عهدًا، ثم نقضوا العهد، فأجلى بعضهم لمحاربته لله ورسوله، وقد قاتلهم المرة بعد المرة، فقاتل بني النضير، وأنزل الله فيهم سورة الحشر، وقاتل بني قريظة عام الأحزاب، وذكر الله فيهم سورة الأحزاب، وقاتل قبلهم بني قينقاع، وبعد هؤلاء غزا خيبر هو وأهل بيعة الرضوان الذين بايعوه تحت الشجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، ففتح الله عليهم خيبر، وأنزل الله تعالى سورة الفتح يذكر فيها ذلك، فكيف بعد ذلك يقال إنه لم يرسل إلا لمشركي العرب وهذه هي حال اليهود معه؟!

وأما النصارى، فإن أهل نجران الذين هم باليمن حينما قدم عليه وفدهم وكانوا ستين راكبًا، وناظرهم في مسجده ﷺ، وأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران ولما ظهرت حجته عليهم، وتبين لهم أنه رسول الله إليهم وإلى غيرهم أمره الله إن لم يجيبوه أن يدعوهم إلى المباهلة، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ

بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١).

فلما دعاهم إلى المباهلة طلبوا منه أن يمهلهم حتى يتشاوروا فلما تشاوروا قال بعضهم لبعض أنتم تعلمون أنه نبي، وأنه ما باهل قوم نبيًا إلا نزل بهم العذاب فاستعفوا واعتذروا له عن المباهلة، وصالحوه، وأقروا له بالجزية عن يد وهم صاغرون، لما خافوا من دعائه عليهم ولعلمهم أنه نبي دخلوا تحت حكمه كما يدخل أهل الذمة في بلاد المسلمين تحت حكم الله ورسوله، وهم أول من أدى الجزية من النصارى، واستعمل عليهم وعلى من أسلم منهم عمرو بن حزم الأنصاري، وكتب له كتابًا مشهورًا يذكر فيه شرائع الدين، فكانوا في ذمة المسلمين تحت حكم الله ورسوله ونائب رسوله عمرو بن حزم ﷺ، وقصته مشهورة متواترة، نقلها أهل السير والتفسير والفقه والحديث.

وأصل حديثهم معروف في الصحاح وفي السنن، ففي البخاري ومسلم عن حذيفة، وأخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص، قال لما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾، دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا، فقال: **«اللهم هؤلاء أهلي»**، وفي البخاري عن حذيفة بن اليمان، قال: جاء السيد والعاقب صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًا فلاعننا فلا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا قالا: إنما نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أمينًا، فلا تبعث معنا إلا أمينًا. قال: **«لأبعثن معكم رجلاً أمينًا حقًا»**. قال: فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: **«قم يا أبا عبيدة ابن الجراح»** فلما قام قال رسول الله: **«هذا أمين هذه الأمة»**.

والأحاديث والآثار الصحيحة في هذا كثيرة والتاريخ خير شاهد وأعدل حاكم على ذلك كله، فكيف يقال بعد ذلك إنه ﷺ لم يُرسَل إلا لجاهلية العرب فقط، كلا وألف كلا، فما هذا إلا إفك مفترى، وما لهم به علم.

وأما قولهم: إن انتشار دعوته بين غير العرب إنما كان نتيجة الفتح الذي قام به على أساس من الأطماع السياسية والاقتصادية». فنرد عليهم بأن ما زعموه باطل من أصله، فإنه ﷺ وأصحابه ما دخلوا بلدًا فاتحين إلا فتحًا إسلاميًا؛ بدليل أنه كان في بادئ الأمر يعرض على أهل هذا البلد الإسلام والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإن أجابوه فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وإلا قاتلهم أو طلب الجزية منهم، فأي مطمع له في ذلك إلا دعوتهم إلى توحيد الله - عزَّ وجلَّ - وترك عبادة الأصنام ونشر السلام والأمان والعدل في ربوع الأرض، والتاريخ في كل زمان ومكان يشهد على أنه ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى ولم يترك وراءه إلا أشياء قليلة لا تذكر، مثل ناقته البيضاء والدرع المرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير، على أنه ﷺ قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**». وقد عاش ﷺ طول حياته في كفاف من العيش وكان يقول: «**اللهم اجعل عيش آل محمد كفافًا**». ثم إنه كان إذا فتح بلدًا من البلدان ولى أمر هذا البلد واحدًا ممن أسلم منهم، ثم ينتقل إلى غيره، وهكذا كانت فتوحاته الإسلامية وفتوحات خلفائه من بعده، فقد نزههم الله جميعًا عن قول المبطلين وافتراءات الملحدين.

أما عن الآيات التي استدلوا بها على أن رسالته ﷺ كانت خاصة بالعرب فليس في هذه الآيات ما يدل على هذه الخصوصية المزعومة ولكن لسوء فهمهم وضيق أفقهم وخبث طويتهم يريدون تفسير هذه الآيات حسب أهوائهم وضلالهم. وسنبين لك في هذا المقام ما تدل عليه هذه الآيات باختصار فنقول وبالله التوفيق.

* إن آية الأنعام التي ذكر فيها: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الأنعام: ٩٢).

فالمراد من أم القرى مكة المكرمة، وخصها بالذكر لكونها أعظم القرى شأنًا، ولكون أول بيت وضع للناس للتعبد موجود فيها، ولكونها قبلة هذه الأمة ومحل حجهم، فالإنذار لأنها مستتبع لإنذار سائر أهل الأرض جميعًا، والمراد بمن حولها

جميع أهل الأرض، فـ «مَنْ» من صيغ العموم، وقد غلط من قال إن المراد بمن حولها قرى الجزيرة العربية، فمن أين له هذا التخصيص بدون مخصِّص، والمراد بإنذار أم القرى إنذار أهلها وأهل من حولها من سائر الأرض، فهو على تقدير مضاف، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (يوسف:٨٢). أي أهل القرية، فالمراد بمن حولها سائر أهل الأرض بدليل اتجاههم إليها في صلاتهم في مشارق الأرض ومغاربها. ومثلها آية الشورى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى:٧). من جميع الخلق عجم وعرب، وتنذر يوم جمعهم وحسابهم، كل فريق على ما عمل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:٧-٨).

* وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام:١٥٤-١٥٧). الآية.

هذا النص الكريم من أوله إلى آخره لا يؤخذ منه هذا المعنى المزعوم لهم، وهو خصوص الرسالة بالعرب دون غيرهم، فمعنى الآيات باختصار: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾. أي: أعطينا موسى التوراة تمامًا للنعمة والكرامة على من أحسن في اتباعه واهتدى به، أو آتيناه الكتاب تامًا كاملاً جامعًا لما يحتاج إليه من الشريعة، وتفصيلاً لكل شيء من الأحكام، كالعبادات والمعاملات والعقوبات والحرب، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾. أي علمًا من أعلام الهداية، وسببًا من أسباب الرحمة، ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾. أي: آتيناه الكتاب جامعًا لما ذكر، وليعد قومه ويجعلهم محل الرجاء للإيمان بلقاء الله تعالى في دار كرامته، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾. أي: وهذا القرآن الذي يتلى عليكم كتاب عظيم القدر، رفيع الشأن، فالتنكير فيه للتعظيم، أي: أنزلناه كما أنزلنا على موسى كتابًا جامعًا لكل أسباب الهداية التامة الزائدة على ما في كتاب موسى

والمبارك من البـركة، وهي الزيادة والنماء، وقـد سبق أن بينا من قبل مـزايا القرآن الكريم على غيره من الكتب الإلهية. ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا ﴾ (الانعام: ٥٥). أي فاتبعوا ما هداكم إليه واتقوا مـا نهاكم عنه وحذركم إياه، لتكون رحمته تـعالى مرجوة لكم في الدنيا والآخـرة، فكون الكتاب هدى ورحـمة صريح في التعـليل الآتي وهو: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾. وهذا قطع لطريق التعليل والاعتذار منهم، والمعنى: أنزلنـاه لئلا تقولوا أو كراهة أن تقولوا أو منعـا لكم من أن تقولوا يوم الحسـاب والجزاء معتـذرين عن شرككم وإجـرامكم: ﴿ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ ﴾. الهادي إلى توحـيد الله ومعرفتـه وتزكية النفس من دنـس الشرك والرذائل ﴿ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾. وهم اليهود والنصارى، وأن حقيقة حالنا وشأننا أننا كنا غافلين عن دراستهم وتعليمهم لجهلنا بلغتهم وغلبة الأمية علينا، ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾. لأننا أزكى أفئـدة، وأعلى همة، وأمضى عـزيمة، وقد قالوا هذا في الدنيا كما حكاه الله تعالى عنهم في آخر سورة فاطر: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (فاطر: ٤٢-٤٣).

* وأما قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾.

فهذا جواب قاطع لكل تَعلة وعذر، فإن القرآن بـيّنة عظيمة كاملة، فهو مبيّن للحق في العقائد والحجج والدلائل والفضائل والآداب في أصول الشريعة وأمهات الأحكام بما يصـلح به أمور البشـر وشئون الاجتـماع، وهو هدى كامـل لمن تدبره وتلاه حق تلاوته ورحمة عامـة للبشر الذين تنتشر فيهم هدايتـه، فهذه معاني تلك الآيات وما تدل عليـه، فأي إشارة في هذا الكلام لخصـوصية رسالة محـمد عليه الصلاة والسلام بالعرب.

* وأما قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

أي: من الـعرب فـقد أخـرج ابن مـردويه عن أنس قـال: «قرأ رسـول الله ﷺ: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾. فقـال علي بن أبي طالـب: يا رسول

الله، ما معنى من أنفسكم؟ قال: «**نسبًا وصهرًا وحسبًا، ليس فيَّ ولا في آبائي من لدن آدم سفاح، كلنا نكاح**».

وأخرج الحاكم عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفَسِكُمْ**﴾ . بفتح الفاء يعني: من أعظمكم قدرًا وأعلاكم شأنًا، وأخرج ابن مردوية عن سعد بن أبي وقاص قال لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة جاءته جهينة، فقالوا له: إنك نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا. قال: ولم سألتم هذا قالوا: نطلب الأمن فأنزل الله هذه الآية، فأي خصوصية تفهم من هذه الآية إلا أنهم يغالطون ويكابرون.

وأما قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ**﴾ (يونس:٤٧).

فمعناه: أنه تعالى جعل لكل أمة من الأمم الخالية رسولاً بعثه فيهم في وقت الحاجة إليه، يبين لهم أصول دينه الثلاث الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر والعمل الصالح المناسب لحال زمانهم، فإذا جاء رسولهم، وقامت الحجة عليهم قضى بينهم بالقسط، أي قضى بينه وبينهم بالعدل، وهم لا يظلمون في قضائه تعالى، وهذا تقرير لسنة الله في خلقه، حيث لا يتركهم من غير دين يهديهم إلى الخير، فأي خصوصية تفهم من هذه الآية، كذلك إلى العمى والضلال عن هدى القرآن.

* وأما قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ (إبراهيم:٤).

فمعناه كما يقول علماء التفسير لما منَّ الله على المكلفين بإنزال الكتاب وإرسال الرسول ذكر من كمال تلك النعمة أن ذلك المرسل يكون بلسان قومه. أي متلبسًا بلسانهم، متكلمًا بلغتهم؛ لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم وسهل عليهم قوله، بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول، ولا يفهمون ما يخاطبهم به، حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرًا طويلاً، ومع ذلك فلابد أن يصعب عليهم فهمه بعض الصعوبة.

ولهذا علل سبحانه وتعالى النزول بلسان القوم بقوله: ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ . أي: وهذا لا يدل بدوره على خصوص هذه الرسالة بالعرب وحدهم؛ لأنه ﷺ

أرسل للناس جميعًا بل للإنس والجن، ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة كما مر، ولكنه لما كان قومه هم العرب، وكانوا أخص به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، وعليهم تبيينه لمن كان على غير لسانهم وتوضيحه حتى يصير فاهمًا له كفَهْمهم إياه، ولو نزل بجميع لغات من أنزل إليهم لاختلفوا في معانيه اختلافًا كثيرًا؛ لتعدد اصطلاحات تلك اللغات المختلفة في معاني كلمات القرآن، مما يؤدي لاختلافهم في القرآن كما اختلف اليهود والنصارى في كتبهم، والاختلاف في القرآن كفر، فكان القرآن بلغة العرب لهذا، وعلى العرب أن يترجموا لغيرهم معاني القرآن بلغاتهم ليفهموه ويعملوا بما فيه.

أما ترجمة لفظه فلا يجوز بحال من الأحوال؛ لأنه عربي، ومن شرط صحته العربية، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢).

وقال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (فصلت: ٤٤).

وقال جلت حكمته: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٧).

فأنزله بلغة العرب، لأنهم هم الذين يعلمون معانيه، ويفهمون ما فيه، ويبلغون دعوته لجميع الأمم، ثم إن في ذلك مجالاً كبيرًا لإعمال الفكر والترجمة لمعانيه بتلك اللغات المختلفة، وهو سبيل إلى الاجتهاد والكد وترقية للنوع الإنساني، فارتقاء العقول على حسب الاطلاع والبحث واستقامة الأعمال.

أما قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف: ٤٣).

فمعناه: استمسك يا محمد بالذي أوحى إليك من القرآن وإن كذب به من كذب ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف: ٤٣).

أي: على طريق واضح المعالم، لا غموض فيه ولا إبهام ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ (الزخرف: ٤٤).

أي: وإن القرآن لشرف لك ولقومك من قريش؛ إذ نُزّل عليك وأنت منهم بلغتك ولغتهم، ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ (الأنبياء: ١٠). أي: فيه شرفكم، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب.

وقيل في ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾. أي: فيه بيان لك ولأمتك جميعًا فيما لكم إليه حاجة، فأي خصوصية تُفهم من معاني هذه الآيات إلا أن القوم لا يفقهون. على أنني أريد أن أقول هنا حيث إن الأمة الإسلامية قد شرفها الله - عزَّ وجلَّ - بنزول القرآن بلغتها وجعل محمدًا ﷺ منهم، وجعل رسالته عامة كافة لجميع الناس، وجعل دينهم الإسلام وهو الدين الحق وما عداه ضلال، وقد وعد الله بنشره في جميع الأرض، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَشهيدا﴾ (التوبة: ٣٣).

وحيث إن أبناء العرب هم العارفون بهذه اللغة؛ لهذا أقول: هم الملزمون بنشر هذه اللغة العربية، ودراسة هذا الدين الصحيح للأمم الأخرى، فإن قصَّرت الأمة العربية فيما ألزمها الله به أذلها الله في الدنيا، وأدخل المقصرين منها النار يوم القيامة، ولذلك لما قصَّرت في واجبها فترة من الزمن انطمست معالمها إلى حد ما، فانغمسوا في تقاليد الأمم الأوروبية ودخلوا في حوزتهم، فتدهور حالهم وضعفت شوكتهم، وعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب من إخواننا ويفهموا مراكزهم في الأرض، فإنهم هم المعلمون للأمم، فلينشروا هذا القرآن، وليعلموا هم لغات الأمم، وليكتبوا إليهم المصاحف بالعربية، ويكون بهامشها تفاسير بلغات مختلفة: بالإنجليزية والرومية والفارسية والألمانية ونحوها، حتى تعرف الأمم هذا الدين الحق ويتبين لهم الرشد من الغي.

فهذه الآيات ونحوها مما ذكرتْ نزول القرآن باللغة العربية توجب على أبناء العرب من مصري وشامي ويمني وحجازي وعراقي ومغربي أن يكونوا هم ناشري

هذا الدين، وسيقوم مجدهم كرة أخرى إن شاء الله، وترجع أيام عزهم، فقد ورد في حديث البخاري ومسلم: «**أن الخلافة في قريش**»، وفي البخاري: «**إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين**». إذا عرفت هذا فتأمل قول المصطفى ﷺ: «**ما أقاموا الدين**»، على أني أعود مرة ثانية فأقول لهؤلاء القوم: ما لكم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعضه الآخر؟ فلماذا آمنتم بتلك الآيات التي أوردتموها دليلاً على خصوص الرسالة المحمدية في زعمكم، وهذا لسوء الفهم وتبلد القريحة، وتركتم الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة الدالة على عموم الرسالة كقوله تعالى: ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ (الأنعام: ١٩).

وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (الزخرف: ١٥٨).

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ﴾ (سبأ: ٢٨).

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنبياء: ١٠٧). والعالمين جمع عالم والعالم، ما سوى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾ (الفرقان: ١).

وقول النبي ﷺ فيما أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بعث الله محمدًا ﷺ إلى الأحمر والأسود فقال: «**يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا**»، وقيل معنى كونه ﷺ رحمة للكفار في الدنيا فلأنهم أمنوا به من الخسف والمسخ والاستئصال، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ** ﴾ (الأنفال: ٣٣).

ثم إن الآيات الواردة في القرآن الكريم الدالة على عموم رسالة نبينا محمد ﷺ كثيرة، وقد ذكرنا منها خمس آيات صريحات في الدلالة على عموم الرسالة. والله أعلم.

الرد على الشبهة الثانية في هذا الباب: وهي قولهم إن إعجاز القرآن إنما هو في نظمه فحسب.

ونقول رداً على هذه الشبهة الواردة في إعجاز القرآن: إن من زعم أن إعجاز القرآن إنما هو في نظمه فحسب، فهو زعم باطل من أصله، ودليل بطلانه ما أثبته العلماء المحققون من قدامى ومُحْدَثين وما كتبوه في هذا المضمار، مؤيدًا بالدليل والحجة، وما أثبته التاريخ، وشهدت به الأيام، وما هو مشاهد بالعيان، لدليل قاطع على أن القرآن الكريم معجز من جميع ما يخطر ببال العاقل المتدبر من جميع نواحي الإعجاز، غاية ما في الأمر أن كل العلماء اتفقوا على إعجازه في نظمه ولفظه وبيانه وإخباره بالمغيبات، وإن اختلفوا في مسألة الإعجاز العلمي، مستدلين على ذلك بأن التحدي إنما كان على الإتيان بمثل هذا القرآن أو بمثل سورة منه أو بعشر سور من مثله، ولو مفتريات، فالتحدي كان بمثل اللفظ وفصاحته والأسلوب والنظم وبلاغته، لا بشيء مما ظهر من المخترعات، الحديثة في هذه العصور لأن القوم الذين نزل فيهم القرآن كانوا لا يخطر ببالهم مثل هذه المخترعات ولا يعرفون عنها شيئًا، على أن من قالوا: إن في القرآن الكريم إعجازًا علميًا لا ينكرون إعجازه في لفظه وأسلوبه، ويستدلون على صحة رأيهم، وهو وجود الإعجاز العلمي في القرآن بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣).

وعلى كل حال فإن مسألة إعجاز القرآن هي كما قال صاحب المنار مع شيء من التحوير في العبارة والاختصار والإيجاز في الأدلة: إنه أمر ثبت بالعقل وتواتر فيه النقل، وحسبك منه وجود ما لا يحصى من المصاحف في جميع الأقطار التي يسكنها المسلمون، وكذا في غيرها، ووجود الألوف من حفاظه في مشارق الأرض ومغاربها، وهي تحكى لنا هذه الآيات في التحدي بإعجازه، ولو وجد له معارض أتى بسورة مثله، لتوفرت الدواعي على نقلها بالتواتر أيضًا، بل لكانت فتنة ارتد

بها المسلمون على أدبارهم، هذا ولما كان إعجازه لمزايا فيه تعلو قدرة المخلوق علمًا وحكمًا وبيانًا للعلم والحكمة حار العلماء في تحديد وجه الإعجاز فيه بعد ثبوته بالعلم اليقيني الذي بلغ حد الضرورة في ظهوره. حتى قال بعض علماء المعتزلة: إن إعجازه كان بالصرفة. يعنون أن الله تعالى صرف قدرة بلغاء العرب الخلّص في عصر التنزيل عن التوجه لمعارضته، فلم يهتدوا إليها سبيلاً، وقد أبطل العلماء القول بالصرفة وعللوا هذا الإبطال بأن القول بالصرفة لو كان صحيحًا لم يكن في القرآن إعجاز قط، وسبق أن تكلمنا على إبطال هذا الرأي في مقدمة هذه الرسالة في القسم الثاني منها، فارجع إليه إن شئت، وعلى كلٍّ فالقول بالصرفة رأى كسول أراد أن يريح نفسه من عناء البحث وإجالة النظر وقَدْح الفكر في هذا الأمر، ولكن لشدة حاجة المسلمين لبيان هذا الأمر ووضوحه سنورد طرفًا من أقوال العلماء فيه، وشموله لكل وجه من وجوه الإعجاز؛ ردًا على من قال: إن إعجازه كان في نظمه فحسب.

أما قولهم: «وقد ذهب المسلمون يلتمسون له الشمول، وحاولوا أن يجدوا فيه إعجازًا إلهيًا في العقيدة والشريعة والفلسفة وفي العلم الحديث».

فنقول ردًا على هذا: إن من أبرز المتكلمين في ناحية إعجاز القرآن من القدامى والمحدثين إبراهيم بن سيّار النظّام المعتزلي توفي سنة (٢٣١هـ) وخلاصة رأيه في إعجاز القرآن أنه أخبر بالمغيبات.

والجاحظ ـ وهو ليس بحاجة إلى تعريف، وصفه ابن المرتضى في الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة ـ ورأيه أن إعجاز القرآن كان في نظمه وأسلوبه وروعته وجلاله، وإن كان رأيه في الصرفة أنها وجه من وجوه الإعجاز، ولكن بعد أن قامت تجربة المعارضة وفشلت، واعترف العرب بالعجز، وشهدوا بأن القرآن معجز، لنظمه العجيب.

وهاشم الجبائي توفـي (٣٢١هـ) - وصفه ابن المرتضى في الطبقـة التاسعة من طبقـات المعتزلة - ورأيه فـي إعجاز القرآن يرجـع إلى مزيته العـالية في الفـصاحة قائلاً: «إنما يكـون الكلام فصيحًـا بجزالة لفظه وحسـن معانيه، ولابد من اعـتبار الأمرين؛ لأنه لو كان جزل اللـفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحًا، فـلابد من اعتبار الأمرين معًا».

وأما أبو الحسن الرمـاني المعتزلي المولود سنة (٢٩٦هـ) المتـوفي (٣٨٤هـ) فقد حدد وجوه الإعجاز في القرآن في سبع جهات:

ترك المعارضة مع شدة توفر الدواعي، التحـدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المغيبة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجز.

وأما القاضي عبـد الجبار المتوفى (٤١٥هـ) - وهو الذي تلقبه المـعتزلة بقاضي القـضاة - فرأيه فـي الإعجاز أنه تحـدى بمعارضـته مع أنهم كـانوا هم الغـاية في الفصـاحة، والمشار إليهم فـي الطلاقة والذلاقة، وقد قـرعهم بالعجـز عن الإتيان بمثله، فلم يعارضوه وعدلوا عنه.

وذلك يدل عـلى أنه في الفـصاحـة قد بلغ نـهاية الرتـبة، وأنه صـار بذلك معـجزًا، وأنه بالإضـافة لإعـجازه البلاغـي فهو مـعجـز أيضًا بزوال الاخـتلاف والتناقض على ما يقتـضيه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

وأنه معجـز أيضًا لتضمنه الإخبـار عن الغيوب: وهؤلاء المتقـدمون كلهم من المعتزلة.

أما علماء الأشاعرة: فنذكر منهم أولاً القاضي أبا بكر الباقلاني الملقب بسيف السنـة ولسان الأمة تـوفي سنة (٤٠٣هـ)، ورأيه فـي الإعجاز يـنحصر فـي ثلاثة وجوه، تكررت في كتبه كثيرًا: وهي الإخبـار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وأن القرآن بديع في نظمه عجيب التأليـف، وأنه بلغ المنتهى في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه.

وأما عبد القاهر الجرجاني الأشعري صاحب «دلائل الإعجاز» توفي سنة (٤٧١هـ) ورأيه أن الإعجاز في القرآن هو نظمه، وليس النظم هو في ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، ولكنه تناسق دلالات الألفاظ وتلاقي معانيها على الوجه الذي يقتضيه العقل.

أما عن الزمخشري فهو جار الله محمود بن عمر ولد بزمخشر من أقاليم خوارزم الفارسي سنة (٤٦٧هـ)، حيث كان مذهب الاعتزال مزدهرًا، فكان طبيعيًا أن يعتنقه، ورأيه في الإعجاز أن القرآن معجز لصدقه في الإخبار عن الغيوب، وعنده أن نظم القرآن العجيب هو أم الإعجاز، وهو القانون الذي وقع عليه التحدي.

وأما ابن حزم الأندلسي الظاهري فقد ولد سنة (٣٨٤هـ)، وتوفي (٤٥٦)، ورأيه في الإعجاز من ثلاثة وجوه الإخبار بالغيب ولنظمه الذي لا يقدر عليه العباد ولأن الله صرف الناس عن الإتيان بمثله.

وأما فخر الدين الرازي المولود سنة (٥٤٤هـ) والمتوفى (٦٠٦هـ) فرأيه في الإعجاز أن القرآن معجز لبلاغته التي أعجزت البلغاء، فلا جديد عنده يذكر.

وأما السكاكي فهو أبو يعقوب يوسف بن محمد بن على السكاكي ولد في خوارزم سنة (٥٥٥هـ)، وقيل توفي سنة (٦٢٣هـ)، أو سنة (٦٢٧هـ)، والراجح أنه توفى (٦٢٦هـ)، ورأيه في الإعجاز أن للبلاغة حدًا أعلى، وهو حد إعجاز القرآن، ويقول: اعلم أن شأن إعجاز القرآن عجيب لا يدرك، ولا يمكن وصفه، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق.

هذه هي آراء العلماء في منتهى الاختصار والإيجاز في وجوه الإعجاز في القرآن، فمن أين لهؤلاء المعارضين القول بأن علماء المسلمين قالوا: إن إعجاز القرآن هو في نظمه فحسب، إنْ هذا إلا إفك مفترى، على أننا سنتكلم على قولهم: «إن التاريخ الإسلامي ينكر الإعجاز العلمي ونحوه في القرآن». ونرد على هذا الإنكار فنقول: قال صاحب المنار في إعجاز القرآن: إن إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه له وجوه».

الأول اشتماله على النظم الغـريب، والوزن العجيب، والأسلوب المخالف لما استنبطه للبلغاء من كلام العرب في مطالبه وفواصله ومقاطعه، كما يدل على ذلك كلام الوليد بـن المغيرة، وهو من أكبر بلغـاء قريش. فقد أخرج الحاكـم وصححه والبيهقي في دلائـل النبوة عن ابن عباس قال: إن الوليد بن المغـيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له، فبـلغ ذلك أبا جهل فأتاه، فقال: يا عم إلى قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما عنده.

قال: لقد عـلمت أني من أكثرها مالاً. قـال فقل فيه قولاً يبـلغ قومك أنك منكر له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشـعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقـول شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحتـه. قال: والله ما يرضي قومك حتى تقول فيه قال فدعني أفكر فلما فكر قال: إن هذا سحر يؤثر... الخ.

وكان هذا سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ....** ﴾ (المدثر: ١١-٣٠). الآيات.

وقد استطـرد المرحوم رشيد رضا قـائلاً: لعمري إن مسألـة النظم والأسلوب لإحدى الكبر وأعجب العجائب لمن فكر وأبصـر، ولم يوفها أحد حقها على كثرة ما أبدوا وأعادوا فيـها، وما هو بنظم واحد ولا بأسلـوب واحد، وإنما هو مائة أو أكثر، فالقرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر، وكل سورة منها تقرأ بالترتيـل المشبه للتلحين، المعين على الفـهم المفيد للتأثير، على اخـتلافها في الفواصل وتفاوت آياتـها في الطول والقصر، فمنها المؤلـف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ومن أكثر، ومنهـا المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر، ومنها المتفق في أكثر الفواصل أو كلها، ومنها المختلف في السورة الواحدة منها.

وهي على ما فيها من تشابه وغير متشابه في النظم متشابهة كلها في مزج المعاني العالية بعضها ببعض من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى وآياته في الأنفس والآفاق، والحكم والمواعظ والأمثال، وبيان البعث والمآل، ودار الفجار والأبرار، والاعتبار بقصص الرسل والأقوام، وأحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام، فنظم القرآن لا يشبهه ولا يقرب منه شيء من نظم الفصحاء ولا أساليب البلغاء، مهما ارتقى، ومهما تختلف منظومات الشعراء وترتقي، فلن تعدو بحور الشعر المنقولة عن المتقدمين والتوشيحات المعروفة عند المولدين، فلا يشبه شيء من هذه ولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها.

ولكل منهم نظم وأسلوب خاص، وإن شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشري ونظم الكلام الإلهي فائت بقارئ حسن الصوت يسمعك بعض أشعار المفلقين أو خطب المصاقع المفوّهين من المتقدمين والمتأخرين يسمعك بكل ما يستطيع من نغم وتحسين، ثم ليتل عليك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب كسورة النجم مثلاً ثم سورة القمر والرحمن والواقعة وسورة الحديد ثم حكّم ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في أنفسها، ثم في الفرق بين كل منها وبين كلام البشر في كل أسلوب من أساليب بلغائهم، وتأثير كل من الكلامين في نفسك بعد اختلاف وقعه في سمعك، بل تأمل المعنى الواحد من المعاني المكررة في القرآن؛ لأجل تقريرها في الأنفس، ونقشها في الأذهان، كالاعتبار بأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم من مختصر ومطول، وافطن لاختلاف النظم والأساليب فيها، فمن المختصر ما في سورة الذاريات والنجم والقمر والفجر، ومن المطول ما في سورة الأعراف والشعراء وطه.

لعلك إن قرأت هذا تشعر بالفرق الشاسع بين كلام المخلوقين وكلام الخالق، وتحكم بهذا الضرب من الإعجاز حكمًا ضروريًا ووجدانيًا لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك وإن عجزت عن بيانه بقولك.

الوجه الثاني:

الإعجاز في بلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفي عصر تنزيله وفيما بعده، ولم يختلف أحد من أهل البيان في هذا، وإنما أورد بعض المخالفين بعض الشُّبه على كون بلاغة كل سورة بلغت حد الإعجاز فيه، فاختلفوا في أن قصارى السور لم تبلغ حد الإعجاز.

والقائلون به لا يحصرون إعجاز كل سورة فيه، ويتحقق التحدي عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره، كأخبار الغيب في سورة الكوثر التي هي أقصر سورة، على أن مسيلمة الكذاب تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها، فجاء بخزى كان حجة على عجزه وصحة إعجازها، ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة. ويماري فيما كتب علماء المعاني والبيان من قواعدها، زاعمين أنه يمكن حمل كل كلام عليها، وأن الإحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول، لا تقوم به حجة، ولا يثبت به مدلول؛ لأن الذوق كالحس خاص بصاحبه (من ذاق عرف).

وسبب هذا جهلهم باللغة العربية الفصحى، فقد مرت القرون في أثر القرون على ترك الناس لمدارسة الكلام البليغ منها واستظهاره واستعماله، واقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع، وهي أدنى ما وضع في فنونها فصاحة وبيانًا، وأشدها عجمة وتعقيدًا.

فتلك الكتب التي اقتصر مؤلفوها على سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة، بعيدة عن فصاحة أهل اللغة وبيان المتقدمين الواضعين لهذه الفنون، ومن بعدهم إلى القرن الخامس، كالخليل وسيبويه وأبي علي وابن جني وعبد القاهر الجرجاني، حتى صار أوسع الناس علمًا بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها، وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ منها، فضلاً عن الإتيان بمثله.

فمن لم يـقرأ من كتب البـلاغة إلا مثل السمـرقندية وشرحي جـوهر الفنون وعقود الجمان، فشـرحي التلخيص للسعد التفتازاني. وحواشـيهما، لا يرجى منه أن يتذوق للبلاغة طعمًا أو يقيم للبيان وزنًا.

فأنى يهتدى إلى الإعجاز بهما سـبيلاً، أو ينصب عليه دليلاً، وإنما يرجى هذا التذوق لهذا العلم لمن يقرأ «أسرار البلاغة»، و«دلائل الإعجاز» للإمام عبد القاهر، فإنهما هما الـكتابان اللذان يحيلانك في قوانين البلاغـة على وجدانك، وما تجده من أثر الكـلام في قلبك وجنانـك، ولابد مع ذلك من قـراءة الكثير مـن منظوم الكلام ومنثوره، واستظهار بعضه مع فـهمه، كما قرر ذلك ابن خلدون في الكلام على علم البيان في مقدمته.

فهذا هو الأصل في تحصيل ملكة البلاغة فهمًا وأداءًا، والقوانين الموضوعة لها مستنبـــطة من الكلام البليغ، وليس هو مسـتنبطًا منها، وقد عكست القـضية منذ القـرون الوسـطى، حـتـى سـاغ لمستقل الفكر أن يقول في الكتـب التي أشرنا لها وهـي التـي تقـرأ في معاهد الأزهر وكلياتـه وأمـثالها من معـاهد التعلـيم فـي بلاد الإسلام: إن قواعدها تقليدية لا يمكن أن يعـلم بها تفاضل الكلام؛ إذ يمكن حمل كل كلام عليهـا، ولذلك كان أكثر الناس مزاولة لـهـا أضعفهم بيانًا وأشـهرهم عيًا وفهاهة، وأيما كان فإن معرفة مكانة القرآن الكريم من البلاغة لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتى حظًا عظيمًا من مختار كلام البلغاء المنظوم منه والمنثور والمرسل والمسجـوع، حتى صار ملكة له وذوقًا، واسـتعان على فهم فلسـفته بمثل كتـاب عبد الـقاهر والصـناعتين لأبي هـلال العسكـري والخصائص لابـن جني، وأساس البلاغـة للزمخشري ومـغنى اللبيب لابن هشـام، فهذه مقدمـات البلاغة ونتيجتها الملكة، ولها غاية يمكن العلم بها من التاريخ، وهي ما كان للقرآن الكريم من التأثير في الأمة العربية، ثم فيمن حذقها من الأعاجم أيضًا.

على أن الحد الصحيح للبلاغة في الكلام هو أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع، بإصابة موضع الإقناع من العقل والوجدان من النفس، وقد يعبر عنهما بالقلب، ولم يُعرف في تاريخ الأمة البشرية أن كلامًا قارب القرآن في تأثيره في العقول والقلوب.

فهو الذي قلب طباع الأمة العربية، وحوّلها عن عقائدها وتقاليدها، وصرفها عن عداواتها، وصدف بها عن أثرتها وثاراتها، وبدلها بأميتها حكمة وعلمًا، وبجاهليتها أدبًا رائعًا وحلمًا، وألف من قبائلها المتفرقة أمةً واحدة، سادت العالم بعقائدها وفضائلها وعدلها وحضارتها وعلومها وفنونها، وقد اهتدى إلى هذا النوع من إعجازه بعض حكماء أوروبا مستنبطًا له من هذه الغاية التاريخية، وبيّنه في الرد على من زعم من دعاة النصرانية أن محمدًا ﷺ لم يؤت مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات المعجزة، فقال ما معناه: إن محمدًا كان يتلو القرآن مولهًا مدلهًا، خاشعًا متصدعًا. ومعنى مولهًا مدلهًا: أي في حال يؤثر فيها الكلام في نفسه وفي نفس سامعه تأثيرًا يملك عليهما أمرهما، أي أن يكون في قراءته فاعلاً منفعلاً وهاديًا مهتديًا، فيفعل في جذب القلوب إلى الإيمان به فوق ما كانت تفعل جميع آيات الأنبياء من قبله، وقد رؤي وروى عن بعض أدباء هذه اللغة من غير المسلمين أنهم كانوا يذهبون في بعض ليالي رمضان إلى بعض بيوت معارفهم من المسلمين؛ ليسمعوا القرآن يمتعون ذوقهم العربي وشعورهم الأدبي بسماع آياته المعجزة، وقد شهد له أهل العلم والإنصاف منهم بهذا الإعجاز في النظم والأسلوب والبلاغة، التي يغوص تأثيرها في أعماق القلوب، ولكنهم لم يفقهوا دلالة ذلك على أنه من عند الله - عزَّ وجلَّ - لسبق الشقاوة لهم أزلاً.

الوجه الثالث من وجوه إعجازه:

اشتماله على الإخبار بالغيب من ماض، كقصص الرسل مع أقوامهم، مثل قوله في بَني آدم: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾(المائدة: ٢٧). الآيات.

وكقصة نوح ـ عليه السلام ـ مع ابنه ومع قومه في سورة هود وقصة موسى وفرعون، وقصة يعقوب وأولاده يوسف وإخوته وما دار بينهم، وقصة هود، وصالح وداود وسليمان وأيوب ويونس وأصحاب الكهف، وغير ذلك مما قصه علينا من أخبار الأمم السابقة.

ومن قصص الحاضر أيام تنزيله، كقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ (الروم: ١-٥). الآيات. وفيها خبران عن الغيب ظهر صدقهما بعد بضع سنين من نزول الآيات وكان الصديق ﷺ قد راهن بعض المشركين على صدق الخبر فربح الرهان.

وعن المستقبل كقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ (الفتح: ١٥)، الآية. وقوله: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ (الفتح: ١٦).

وقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ ﴾ (الفتح: ٢٧). وهذه الآيات الثلاث في سورة الفتح.

وقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (البقرة: ١٤٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (المائدة: ٦٧).

وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (النور: ٥٥).

وفي سورة التوبة من الأخبار عما في قلوب المنافقين وعما سيقولون في بعض المسائل وأمثالها كثير. هذا ومن أظهر الإخبار بالمغيبات وعد الله تعالى بحفظ

القرآن من النسيان والتغيير والتبديل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام: ٦٥). الآيات، أنه قال: «إنها نبأ غيبي عمن يأتي بعد»، بل ورد هذا المعنى في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ أيضًا.

وقد ظهر مصداق هذه الآية في حروب الأمم الكبرى وغيرها، وفي هذه الأيام، فرُحَى الحرب دائمة تكاد لا تنقطع، حتى بين المسلمين كما نرى.

فهذه الأخبار الكثيرة بالغيب لَدليلٌ واضح على إعجاز القرآن، وعلى أنه كلام الله تعالى؛ إذ لا يعلم الغيب غيره سبحانه، وعلى نبوة محمد ﷺ.

الوجه الرابع:

سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف، خلافًا لجميع كلام البشر، وهذه السلامة هي المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

فإننا نجد كبار العلماء في كل عصر ومصر يصنفون الكتب الكثيرة، فيسودون ثم يصححون، ويبيضون ثم يطبعون وينشرون، ثم بعد كل هذا التدقيق والتمحيص يظهر لهم ولغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والتناقض والأغلاط اللفظية والفنية، ولاسيما إذا طال الزمان، وهذا أمر مشهور في جميع الأمم، لا سبيل لإنكاره، لكن معاذ الله أن يقع شيء من ذلك في القرآن الكريم.

الوجه الخامس:

إعجازه في اشتماله على العلوم الإلهية، وأصول العقائد الدينية، وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسي والمدني

والاجتماعي، الموافقة لكل زمان ومكان، وبذلك كان فضله على كل ما سبقه من الكتب السماوية ومن القوانين الوضعية ومن الآداب الفلسفية، كما يشهد بذلك التاريخ وأهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقية والغربية، من آمن منهم بكونه من عند الله، ومن لم يؤمن، حتى كبار السياسيين من خصوم الدول الإسلامية أمثال (لورد كرومر) عميد الدولة البريطانية وهو في مصر شهد في تقريره السنوي الأخير عن مصر بنجاح الإسلام الباهر في التشريع الديني دون التشريع الاجتماعي والسياسي، وعلل الأخير بأن ما وضع منذ أكثر من ألف سنة لا يمكن أن يوافق مصالح جميع الناس الآن، وفي كل آن فكتب إليه الشيخ محمد رشيد رضا كتابًا يسأله فيه هل تعني بأحكام الشريعة الكتاب والسنة أم الفقه الذي وضعه العلماء ومزجوا فيه آراءهم بما يأخذونه عنهما وخالف فيه بعضهم بعضا.

فإنه إن كان يعني الكتاب والسنة فأنا مستعد لإظهار خطئه له، فكتب إليه اللورد كتابًا قال فيه: «إنني أردت بما كتبت مجموع القوانين الإسلامية التي تسمونها بالفقه؛ لأنها هي التي تجري عليها الأحكام، ولم أقصد الدين الإسلامي نفسه» إلخ، على أن هذا الوجه من أظهر وجوه الإعجاز، فإن علوم العقائد الإلهية والغيبية والآداب والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أعلى العلوم وأرقاها، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الأفراد القليلون، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقًا وكمالاً، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئًا منها، ولم ينطق بقاعدة، ولا أصل من أصولها، ولا حكم بفرع من فروعها، إلا أن يكون ذلك وحيًا من الله تعالى إليه.

الوجه السادس:

اشتمال القرآن على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والإنسان، ووصفه لخلق السموات وشمسها وقمرها

ونجومهـا والأرض والهواء والسحاب والماء من بحـار وأنهار وعيون وينابـيع، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم، وبيان لطريق التشريع السوي للأمم.

وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنًا، ثم عجزت هذه القرون التـي ارتقت فيها جميع العلوم والفـنون أن تنقض بناء آية من آياته، أو تبـطل حكمًا من أحـكامه؛ لعدم صـلاحيته مـثلاً، أو تكذب خـبرًا من أخبـاره، وهي التي جعلـت فلسفة الـيونان دكًا، ونسـخت شرائع الأمم نسـخًا، وتركت سائر علوم الأوائل قاعًا صفصفًا، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية، ورجعت في تحقـيقها إلى ما عثر عليـه المنقبون من الآثار العادية، وحكـمت فيها أصول العمران وما يسمونه بسنن الاجتماع، بحيث لم يبق لعلماء الأوائل كتابًا غير مُدَعْثـر الأعضاء ساقط العـماد، فهذا نوع من أنـواع الإعجاز، غير مـا تقدم من سلامته من التعارض والاختلاف، فتـلك في الماضي وهذه في الحاضر والمستقبل، ثم إن ما يأخذه الناس من المسائل العلمية والفلسفية بالتسليم في زمانهم، ثم يظهر ما يبطل تلك المسلمات وينقض ما بنيت علـيه من النظريات، لا يعد عيبًا في قائله ولا ضعفًا في بيانه؛ لأنه مما لا يُسْلَم منه البشر.

وأما من يتكلم في بعض مسائل الموجودات لـبيان العبرة فيها، أو الحث على الاستفادة منها، لا لبيـان حقيقتها في نفسها، فهو لا يكـلف أن يبين تلك الحقيقة التي لا تتعلق بغرضه من الكلام بالاصطلاحات العلمية والفنية. وقد ينتقد منه هذا إذا كان مما يصرف السامع عن مراده منه، أو يوجب نقضًا في استفادته منه كما هو شأن الذين يعظون دهماء الناس من جميع الـطبقات، ويضربون لهم الأمثال بآيات الله تعالى ونعمه فيما سخر لهم من المخلوقات.

فإذا كان هذا النوع من الكلام الذي لا يعاب فيه مخالفته للمسائل الفنية، وقد يعاب فيه تكلف موافقتها، جاء مع ذلـك إما موافقًا وإما غير مخالف لمعارف أهل العصر الذي خوطب أهله به، ثم تبين أن بـعض هذه المعارف كانت جهلاً، وظهر

أنه موافق لما تجدد من العلم والحق والتشريع العدل، أو غير مخالف له، فلاشك في أن هذه تعد له مزية خارقة للمعتاد في البشر، وقد ثبت هذا للقرآن الكريم وحده، فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية، مرت العصور وتقلبت أحوال البشر في العلوم والأعمال ولم يظهر فيه خطأ قط في شيء منها، لهذا صح أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضربًا من ضروب إعجازه للبشر. وإن لم يكن هذا مما تحدى به الرسول ﷺ من عجز البشر عن مثله، لأنه لم يكن ليظهر من بعد فادخر؛ ليكون حجة على أهله كما أشرنا إلى ذلك في أول الكلام على آراء العلماء في وجوه الإعجاز.

الوجه السابع:

اشتمال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله، ثم عرفت بعد ذلك، بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق، وهذه المرتبة هي التي يسمونها بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فهو وإن اختلف العلماء في تحقيق وقوع هذا النوع إلا أننا لابد أن نشير إليه هنا تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ (فصلت: ٥٣). وقوله تعالى: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ (الذاريات: ٢١).

على أننا لا نقول بإخضاع القرآن لكل نظرية علمية، ونلتمس لها مكانًا في آية من القرآن تتناولها بما يوافق هذه النظرية، لا ليس الأمر كذلك، فإن هذه العلوم تتجدد نظرياتها بتجدد الزمن، وهي تصيب أحيانًا وتخطئ أخرى، فالذين يخضعون القرآن في تأويلهم ليطابق المسائل العلمية الحديثة مخطئون في ذلك، ويسيئون الفهم في القرآن؛ لأن هذه المسائل العلمية تخضع لسنة التقدم، فتتبدل وتتغير، وقد تبطل من أصلها، فإذا أخضعنا القرآن لها فقد عرضناه للتناقض كلما تبدلت تلك القواعد العلمية، أو اكتشف منها جديد ينقض القديم ويبطله. وإنما

الإعجاز العلمي حقيقة علمية والقرآن حقيقة قرآنية، فإن وافقت الحقيقة العلمية الحقيقة القرآنية فهو الإعجاز العلمي، وإن لم تتفق مع القرآن فإنها لم تصل بعد لأنْ تكون حقيقة علمية، وإنما هي لا تزال في طور التجربة؛ لأنه من المسلَّم به أن الحقيقة العلمية إما أن توافق الحقيقة القرآنية أو لا تعارضها، وليس المراد بالإعجاز العلمي عند هؤلاء القائلين به هو الكشف عن تلك النظريات العلمية التي تتجدد وتتغير وتكون نتيجة لمجهود بشري، وإنما المراد منه هنا هو الحث ولفت الأنظار للتفكّر والتدبر في صنع الله العلي القدير لهذه المخلوقات العجيبة، التي يُستدل بها على أنها لابد لها من صانع حكيم، وهو الله جلت قدرته وتعالت حكمته، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (الحجر: ٢٢).

فكانوا يقولون: فيه إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب بما يكون سببًا لنزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لإناثه، ولما اهتدى علماء أوروبا إلى هذا وزعموا أنه مما لم يسبقوا إليه من العلم صرح بعض المطلعين على القرآن منهم بسبق العرب إليه.

قال مستر «أجنيري» المستشرق الذي كان أستاذًا للغة العربية في مدرسة أكسفورد في القرن الماضي: إن أصحاب الإبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوروبا بثلاثة عشر قرنًا. انتهى «منار».

نعم إن أهل النخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذ كانوا ينقلون اللقاح من طلع ذكور النخيل إلى إناثها، ولم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك وحدها، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية، بل حملوها على المجاز.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠). أي: كذب الذين كفروا بآياتنا، ولم يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة ففتقناهما، وخلقنا منها هذه الأجرام السماوية التي تظلهم وهذه الأرض التي تقلهم، فهذه

فتكوير الليل على النهار نص صريح في كروية الأرض، وفي بيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف في الجغرافيا الطبيعية عند أهلها.

ومثله كذلك قوله تعالى: ﴿ **وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (يس:٣٨-٤٠). فهو موافق لما ثبت في الهيئة الفلكية، مخالفًا لما كان يقوله المتقدمون.

ومنه الآيات المتعددة الواردة في خراب العالم عند قيام الساعة، وكون ذلك يحصل بواقعة أو قارعة تقرع الأرض قرعًا، وتصخها فترجها رجًا، وتبس جبالها بسًا، فتكون هباء منبثًا، وحينئذ تتناثر الكواكب؛ لبطلان ما بينها من سنة التجاذب، والآيات في هذا وفي ما قبله تدل دلالة صريحة على بطلان ما كان يقوله علماء اليونان ومن قلدهم من علماء العرب في الأفلاك والكواكب والنجوم، وعلى إثبات ما تقرر في الهيئة الفلكية العصرية في ذلك وفي نظام الجاذبية العامة.

فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه، وكانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب حتى أن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها؛ لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة - فإظهار ترقي العلم لحقيقتها المبيّنة فيه، مما يدل على أنها مُوحَى بها من الله تعالى.

فهذه أمثلة من مسائل العلوم الكونية والفنون الطبيعية التي خطرت بالبال عند الكتابة من غير تفكير، ولا مراجعة لكتب هذه العلوم، وإنما جاءت تباعًا عند سرد بعض الآيات والسور التي ذكر فيها ما يدل على وجود الإعجاز العلمي، ولابد من تعزيزها ببعض الأمثلة الخاصة بالتاريخ، وليس هو من حيث هو تاريخ مطلب من العلوم التي تطلب من الكتاب الإلهي، فلم يذكر فيه شيء منه بقصد سرد حوادث التاريخ، وإنما جاء ما جاء فيه من حيث ذكر الأمم السابقة، وما دار بينهم

المادة هي المبيّنة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١).

وهذا شيء لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من أهل الأرض قبل القرآن، وكذلك خلق كل الأشياء من الماء، وهو أصرح في الآية مما قبله، ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (الرعد: ٣).

فهذه السنة الإلهية في النبات أصل سنة التلقيح المذكورة آنفًا، فإن المراد بها أن الريح تنقل مادة اللقاح من الذكر إلى الأنثى كما تقدم، وفي هذا المعنى عدة آيات أهمها وأغربها وأعجبها قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر: ١٩).

إن هذه الآية لهي أكبر مثال للعجب بهذا التعبير أي بقوله: ﴿ موزون ﴾. فإن علماء الكون الأخصائيين في علوم الكمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة في كل نوع من أنواعه بدقة غريبة، لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدرة بأعشار الغرام والمليغرام، وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات، أعني: أن هذا التعبير بلفظ (كل) المضاف إلى لفظ (شيء) الذي هو من أعم الألفاظ العربية والموصوف بالموزون تحقيقٌ لمسائل علمية فنية لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر. «انظر رشيد رضا في الجزء الأول من تفسير المنار عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ (البقرة: ٢٣)».

ومنه قوله تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ (الزمر: ٥). تقول العرب: كار العمامة على رأسه إذا أدارها ولفها، وكوّرها بالتشديد صيغة مبالغة وتكثير، فالتكوير في اللغة إدارة الشيء على الجسم المستدير كالرأس،

وبين الرسل؛ للعظة والاعتبار وبيان سنن الله تعالى في الأمم والأقوام، وتثبيت قلب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام. كما أن ذكر السموات والأرض وما بينهما لم يذكر شيء منه لبيان حقائق الموجودات في أنفسها، وإنما ذكرت في سياق آيات الله تعالى الدالة على علمه وقدرته وحكمته ورحمته وفضله على عباده، وقد تضمن كلاً من هذا وذاك بدقة التعبير وإعجاز البيان آيات أخرى تظهر آنًا بعد آن، دالة على أنواع من إعجاز القرآن، وعلى كونه وحيًا من الرحمن، فكتابه تعالى مظهر لقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩).

وأكتفى من هذا النوع الذي له علاقة بالتاريخ بمسألة عظيمة الشأن، تشتمل على شواهد كثيرة منه، وهي حُكْم القرآن الحق على التوراة والإنجيل اللذين كان يدين الله تعالى بهما أعظم شعوب الأرض مكانةً في العالم وأوسعهم علمًا وحضارة، ولا يزال الكثيرون منهم يقدسونها وكذا سائر الكتب التي يعبرون عن مجموعها بالعهدين القديم والجديد.

فما هذا الحكم الذي صدر من عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم على لسان عبده ورسوله النبي الأمي، الذي لم يقرأ في حياته سفرًا، ولم يكتب سطرًا، ولم يحط بشيء من أخبار التاريخ. وملخص هذا الحكم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد أوتوا نصيبًا من الكتاب ونسوا نصيبًا، فلم يحفظوه كله وقد حرَّفوا ما أتوه عن مواضعه تحريفًا لفظيًا ومعنويًا وعقليًا، وقد غلوا في دينهم فزادوا فيه ما لم يأذن به الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، يحلون لهم ويحرمون عليهم ما لم يشرعه الله، وأنهم قصروا في إقامته من جهة أخرى، ففعلوا بما يوافق أهواءهم منه، وتركوا ما يخالفها، كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

وأن اليهود قالوا على مريم بهتانًا عظيمًا، والنصارى غلوا غلوًا عظيمًا، فقالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقالوا: الله ثالث ثلاثة: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (المائدة: ٧٣). إلخ. ما نطقت به الآيات التي يجد القارئ في تفسيرها الحق

المؤيد بالتـاريخ الصحيح الذي حققه علماء أوروبا وغيرهم بعد ظهور الإسلام، هذا التاريخ المـصدق للقرآن الحكيم فـي حُكْمه الذي كان مجـهولاً بتفصـيله عند جميع الناس.

فقد قام بعض كبار رجال الدين في بلاد الإنكليز يكتبون في الجرائد ما قرروه في جمـعيات الكنائس مـن أن الإنجيل لا يثبت ألوهيـة المسيح، فانظـر المنار الجزء الأول لرشيد رضا عند سرده لوجوه الإعجاز في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ﴾ (البقرة: ٢٣).

وقد ثبت عنـد مستقلي الفـكر من أهل أوروبا ممن آمن بما جاء بـه القرآن من حقيقة أمر المسيح، وهو أنه بشر ممتاز بروح قدسية من الله ونبي له، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن هذا مما جاء به القرآن.

وأما عقيدة الكنيـسة بربوبيته وألوهيته فهي محصـورة في عامة المقلدين لهم، ولولا خشية ارتداد العوام لصرحوا بالتوحـيد الإلهي، ونفي التثليث كبعض قسس البروتسنـت، ولا يزال الموحدون يكثرون في أوروبـا والولايات المتحدة عامًـا بعد عام، ويقربون من الإيمان بالقرآن حينًا بعد حين. فمن أين جاءت كل هذه الحقائق السابقـة واللاحقة في الـقرآن الكريم لمحمد بـن عبد الله الأمي بعـد أربعين سنة، عاش معظمـها في عزلة عن العالم وعـلومه، رعي في أولها الغنم فـي جبال مكة وشعابها، وسار في أثنائها سنين قليلة قلـما كان يعاشر فيها أحدًا، وهي التي ظل المسلمون يجهلون مراد القـرآن منها بالتحقيق والتفصيل، حتى بعـد فتحهم للعالم الإسلامي واطلاعهم عـلى علومه وتواريخه إلى أن وصل علم التـاريخ وغيره إلى الدرجة المعـروفة، فمن أين لهـؤلاء الملحدين القـول بأن التاريخ يجهـل مثل هذا التفكير ومثل هذه العلوم، التي جاء إعجاز القرآن بها، والله أعلم.

★★

الباب الثالث

حول ثبوت نص القرآن الكريم وكتابة مصاحفه وما أثير حول هذا الباب من شبهات وتهم ومغالطات

الشبهات: قالوا إن نص القرآن الموجود حصل فيه اضطراب كبير وتحريف وتبديل وزيادة ونقصان، وقد ضاع جزء كبير منه، وذلك للأسباب التالية:

(أ) كان الاعتماد في نقله وحفظه في صدور الصحابة، وقد قتل عدد كبير منهم في المغازي، فذهب بذهابهم كثير من القرآن.

(ب) كان المكتوب قد كتب في وسائل بدائية يصعب حفظها، فكانت على العظام والجريد ونحوها، مع صعوبة ترتيبه وانتظامه فيها، فضاع قسم كبير منه بضياع تلك العظام والعشب، ولكن بقي في الصدور من هذا القسم الضائع معناه، وهذا هو ما زعم علماء المسلمين من أنه قسم من القرآن نسخ لفظه وبقى معناه.

(جـ) إن الصحابة كانوا يحذفون من القرآن ما يرون المصلحة في حذفه، فقد حذف عليٌّ آية المتعة وأسقطها، وكان يضرب من يقرؤها، وهذا مما شنَّعت به عائشة عليه ـ فقالت: إنه يجلد على القرآن وينهى عنه. وقد حذف عبد الله بن مسعود الفاتحة والمعوّذتين.. ونجد أبي بن كعب أضاف إلى المصحف سورتي: الخلع والحفد، فعلمنا من ذلك أن الصحابة أسقطوها.

(د) وقد وجدنا نصوصًا تدل على أن النبي ﷺ نفسه كان ينسى بعض القرآن؛ بدليل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعلى: ٦-٧).

وقوله نفسه لبعض أصحابه: **«اذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها»**. وفي رواية: **«كنت أسقطتهن من المصحف»**.

(هـ) إن الحجاج بن يوسف الثقفي لما قام بنصرة بني أمية جمع المصاحف، فأسقط منها أشياء كثيرة مما لا يوافق بني أمية ويسوؤهم، وزاد فيه أشياء تزلفًا إليهم، وألقى المصاحف السابقة وأعدمها ومحاها، وغسلها بالخل. هذا ما أوردوه من شبه وتهم.

ونقول ردًا على الشبهة الأولى: إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي وعد الله تعالى بحفظه، ووعد الله لا يتخلف، فقد حفظه الله من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، ولم يذهب منه حرف واحد، ولم يتغير فيه شيء من شكله ولا ضبطه، بل كان محفوظًا بعناية الله تعالى من وقت أن تلقاه رسول الله ﷺ عن جبريل عن رب العزة - عزَّ وجلَّ -، وذلك في العرضة الأخيرة التي عرضها جبريل على رسول الله ﷺ، وكان عليه مرتين في السنة التي توفي فيها، فقد حظى القرآن بأوفى نصيب من عناية النبي ﷺ وأصحابه، فلم تصرفهم عنايتهم بحفظه واستظهاره عن عنايتهم بكتابته ونقشه في السطور بعد أن حفظوه واستظهروه ونقشوه في صفحات الصدور، وكان ذلك بمقدار ما سمحت به لهم وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم، فها هو رسول الله ﷺ قد اتخذ كُتّابًا للوحي، فكان كلما نزل عليه شيء من القرآن أمرهم بكتابته؛ مبالغة في تسجيله وتقييده، وزيادة في التوثق والاحتياط في كتاب الله تعالى، حتى تظاهر الكتابةُ الحفظَ، ويعاضد النقشي اللفظ، ثم يعلمهم ﷺ ما فيه من تشريع وعقائد وأحكام، وكان هؤلاء الكُتّاب من خِيرة الصحابة، فمنهم أبو بكر الصديق الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر»**، ومنهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ ومعاوية وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وثابت بن قيس، وغيرهم من كبار أصحاب رسول الله ﷺ فقد كتب الوحي لرسول الله ﷺ أربعون كاتبًا، وكان ﷺ يدلهم على موضع المكتوب من سورته فيكتبونه فيما يسهل عليهم من السعف «جريدة النخل» واللخاف «الحجارة الرقيقة» والرقاع «قطعة من جلد أو

ورق» وقطع الأدم «الجلد» وعظام الأكتاف والأضلاع، ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ، وهكذا فلم ينقضِ العهد النبوي السعيد إلا والقرآن كله مكتوب ومجموع على هذا النمط، بيد أنه لم يكتب في صحف ولا في مصاحف، بل كتب منثورًا كما سمعت بين العظام والرقاع ونحوها مما ذكر، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال: **«ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا»**، وعن زيد بن ثابت قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع». وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ.

وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل ـ عليه السلام ـ فقد ورد أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يقول للنبي ﷺ في معنى الحديث **«ضعوا كذا في موضع كذا من سورة كذا»**، ولا ريب أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يكتبون القرآن، فمنهم من كتبه كله مواظبًا على ذلك، ومنهم من كتب بعضه، وكلٌّ فيما تيسر له من قرطاس أو كتف أو عظم أو نحو ذلك بالمقدار الذي يبلغه عن رسول الله ﷺ.

ولم يلتزموا توالي السور وترتيبها، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها، ثم خرج في سرية من السرايا مثلاً فنزلت في وقت غيابه سورة، فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ وكتابة ما ينزل بعد رجوعه، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه، فيجمعه ويتتبعه على حسب ما يسهل له، فيقع فيما يكتب تقديم أو تأخير بسبب ذلك، وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب شيئًا؛ جريًا على عادة العرب في حفظ أنسابها واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة وهكذا.

والخلاصة من ذلك: أن القرآن كان مكتوبًا كله على عهد رسول الله ﷺ وكانت كتابته ملحوظًا فيها اشتماله على الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن غير

أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض منسوخ التلاوة وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد، وربما كتبه غير مرتب، ولم يكن القرآن وقتئذ مجموعًا في صحف ولا مصاحف عامة؛ لاعتبارات كثيرة منها:

أولا - لم يوجد من الدواعي لكتابته مثل ما وجد في عهد أبي بكر حتى كتبه في صحف، ولا مثل ما وجد في عهد عثمان حتى نسخه في مصاحف؛ لأن المسلمين وقتئذ بخير، والقراء كثيرون، ولم تتسع رقعة الإسلام بعدُ، والفتنة مأمونة، والمعول عليه في ذلك الوقت الحفظ أكثر من الكتابة، وعناية الرسول باستظهاره تفوق الوصف وتوفي على الغاية، حتى في طريقة أدائه على حروفه السبعة التي نزل عليها والرسول بين أظهرهم.

ثانيًا - كان النبي ﷺ بصدد أن ينزل عليه الوحي ينسخ ما شاء الله من آية أو آيات. قال بعض المحققين:

لم يجمع القرآن في مجلد ... على الصحيح في حياة أحمد

للأمن فيه من خلاف ينشأ ... وخيفة الوحي بنسخ يطرأ

ثالثًا - أن القرآن لم ينزل مرة واحدة، بل نزل منجمًا في مدى عشرين سنة أو أكثر.

رابعًا - أن ترتيب آياته وسوره لم يكن على ترتيب نزوله، فقد علمت أن نزوله كان على حسب الأسباب من الحوادث والوقائع، أما ترتيبه فكان لغير ذلك من الاعتبارات، وأنت خبير بأن القرآن لو جمع في صحف أو مصاحف والحال ما شرحناه لكان عرضة تغيير هذه الصحف أو المصاحف كلما وقع نسخ، أو حدث سبب من الأسباب، مع أن الظروف حينذاك كانت لا تساعد وأدوات الكتابة ليست ميسورة، وكان التعويل على الحفظ قبل كل شيء.

ولكن لما استقر الأمر بختام التنزيل، وكان قد توفي الرسول ﷺ وأمن النسخ، وتقرر الترتيب، ووجد من الدواعي ما يقتضي نسخه، ففي خلافة أبي بكر رضي الله عنه التي لاقت أحداثًا شدادًا ومشاكل صعابًا وحروب أهل الردة ونحوها، ومنها موقعة اليمامة سنة (١٢) اثنتى عشرة للهجرة، وقد دارت فيها رُحَى الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب، وكانت معركة طاحنة، استشهد فيها كثير من قراء الصحابة وحفظتهم للقرآن، قيل ينتهي عددهم إلى السبعين، وأنهاه بعضهم إلى خمسمائة، من أجلهم سالم مولى أبي حذيفة، وقد هال ذلك المسلمين وعز الأمر على عمر بن الخطاب، فدخل على أبي بكر وأخبره الخبر واقترح عليه أن يجمع القرآن خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء فتردد أبو بكر أول الأمر لأنه كان وقّافًا عند حدود ما كان عليه الرسول ﷺ، ويخاف أن يجره التجديد إلى التبديل، أو يسوقه الإنشاء والاختراع إلى الوقوع في مهاوي الخروج والابتداع.

ولكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر بن الخطاب تجلّى له وجه المصلحة فاقتنع بصواب الفكرة وشرح الله لها صدره.

علم أن ذلك الجمع الذي يشير به عمر بن الخطاب ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف، وأنه ليس من محدثات الأمور الخارجة، ولا من البدع والإضافات الفاسقة، بل هو مستمد من القواعد التي وضعها الرسول ﷺ بتشريع كتابة القرآن واتخاذ كُتّاب للوحي، وجمع ما كتبوه عنده حتى مات صلوات الله وسلامه عليه.

قال الإمام أبو عبد الله المحاسبي في كتاب «فهم السنن» ما نصه: كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، وقد اهتم أبو بكر رضي الله عنه بتحقيق هذه الرغبة، ورأى بنور الله أن يندب لتحقيقها رجلاً من خِيرة رجالات الصحابة هو

زيد بن ثابت؛ لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال؛ إذ كان من الحفاظ، ومن كُتّاب الوحي لرسول الله، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ، وكان فوق ذلك معروفًا بخصوبة عقله وشدة ورعه وعظم أمانته وكمال خلقه واستقامة دينه، فاستشار أبو بكر عمر في هذا فوافقه.

وجاء زيد فعرض أبو بكر عليه الفكرة، ورغب إليه أن يقوم بتنفيذها، فتردد زيد أول الأمر، ولكن أبا بكر مازال به يعالج شكوكه، ويبين له وجه المصلحة حتى اطمأن واقتنع بصواب ما نُدب إليه.

وشرع زيد بن ثابت يجمع القرآن وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة يشرفون عليه ويعاونونه في هذا المشروع الجليل، حتى تم لهم ما أرادوا ﴿ **وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (التوبة: ٣٢).

وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه أن زيد بن ثابت قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل اليمامة - أي عقب استشهاد القراء السبعين في واقعة اليمامة - فإذا عمر بن الخطاب عنده. قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر - أي اشتد - يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ. قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه. قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟! قال: هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني وأراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من العسب(١)، واللخاف(٢)، وصدور الرجال. حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨). حتى خاتمة براءة. وقد ظلت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر. انتهى. حتى جاء عهد عثمان بن عفان وحصل ما ستعرفه إن شاء الله من جمع القرآن.

فهذا الحديث كما ترى يدل على مبلغ اهتمام الصحابة بالمحافظة على القرآن، وعلى مبلغ ثقة أبي بكر وعمر بزيد بن ثابت، وعلى جدارة زيد بهذه الثقة لتوفر تلك المناقب التي ذكرها فيه أبو بكر ﷺ، ويؤيد ورعه ودينه وأمانته قوله: «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن».

وقد انتهج زيد بن ثابت في نقل القرآن طريقة دقيقة محكمة وضعها له أبو بكر وعمر، فيها ضمان الحيطة لكتاب الله بما يليق به من تثبت بالغ وحذر دقيق وتحريات شاملة، فلم يكتف بما حفظ في قلبه، ولا بما كتب بيده، ولا بما سمع بأذنه فقط.

بل جعل يتتبع ويستقصي آخذًا على نفسه - وهو زيد بن ثابت الورع صاحب المناقب السابقة - أن يعتمد في جمعه للقرآن على مصدرين اثنين:

أحدهما - ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

---

(١) جريد النخل منزوع الخوص.

(٢) قطع الحجارة الرقيقة التي تصلح للكتابة عليها.

ثانيهما ـ ما كان محفوظًا في صدور الرجال، فبلغ في الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئًا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان على أنه كُتب بين يدي رسول الله ﷺ.

يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: «قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله شيئًا من القرآن فليأت به. وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان». أي عدلان يشهدان على أنه كتب أمام رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأنه مما ثبت في العرضة الأخيرة. وأنه لم تنسخ تلاوته.

ويدل على ذلك ما أخرجه أبوداود أيضًا لكن من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر، ولزيد: «اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه» وهو حديث رجاله ثقات.

قال السخاوي في «جمال القراء» ما يفيد أن المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كُتب بين يدي رسول الله ﷺ، ولم يعتمد زيد على الحفظ وحده؛ ولذلك قال في الحديث الذي رواه البخاري سابقًا: «إنه لم يجد آخر سورة براءة إلا مع أبي خزيمة». أي لم يجدها إلا مع أبي خزيمة، أي لم يجدها مكتوبة إلا مع أبي خزيمة الأنصاري، مع أن زيدًا كان يحفظها وغيره كثير من الصحابة يحفظونها.

ولكنه أراد أن يجمع بين الحفظ والكتابة؛ زيادةً في التوثق ومبالغة في الاحتياط، وعلى هذا الدستور الرشيد تم جمع القرآن بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وإجماع الأمة دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة، لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف ولعمر في الاقتراح ولزيد في التنفيذ وللصحابة في المعاونة والإقرار.

ويقول الشيخ عبد الفتاح القاضي في كتابه «تاريخ المصحف»: وقد راعى زيد في كتابة هذه الصحف أن تكون مشتملة على ما يثبت قرآنيته بطريق التواتر، واستقر في العرضة الأخيرة، ولم تنسخ تلاوته، وأن تكون مرتبة الآيات والسور جميعًا.

ولا يطعن في التواتر ما مر عليك من أن آخر سورة براءة لم يوجد إلا عند أبي خزيمة الأنصاري، فإن المراد أنه لم يوجد مكتوبًا إلا عنده، ولا ينافي أنه وجد محفوظًا عند كثرة غامرة من الصحابة بلغت حد التواتر، وقد روعي كذلك أن تكون تلك الصحف مجردة عما ثبتت قرآنيته بطريق الآحاد ولا ما نسخت تلاوته، وعما ليس بقرآن من شرح أو تأويل لكلمة.

وظلت هذه الصحف التي جمع فيها القرآن في رعاية الخليفة الأول أبي بكر مدة خلافته، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مدة خلافته، ثم عند حفصة بنت عمر بعد وفاة أبيها إلى أن طلبها منها والي المدينة مروان فأبت عليه فلما توفيت طلبها من أخيها عبد الله، فبعث بها إليه فأمر بإحراقها.

وقال: إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب، لكن لم يأمر مروان بإحراق هذه الصحف إلا بعد أن أمر عثمان رضي الله عنه بنسخ المصاحف العثمانية وإرسالها إلى الأمصار، ثم أمره بإحراق ما عداها من المصاحف والصحف الأخرى.

ولا يغيبنّ عن بالك أن هذا الجمع كان شاملاً للأحرف السبعة في الرقاع كذلك. وهذا خلاصة جمع أبي بكر للقرآن. قال علي كرم الله وجهه: «أعظم الناس في المصاحف أجرًا أبو بكر. رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله».

أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بسند حسن، وفي هذا الأثر ردٌّ صريح على من قال: إن أول من جمع القرآن بين اللوحين علي بن أبي طالب، وعلى

من قال أول من جمعه سالم مولى أبي حذيفة أو عثمان بن عفان، فهذه الأقوال كلها على فرض صحتها لا تطعن في كون أبي بكر ﷺ هو أول من جمع القرآن غير أن جمعه كان في صحف وأوراق متفرقة مرتب الآيات.

وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ وفيها القرآن منتشر، فجمعها جامع وربطها؛ حتى لا يضيع منها شيء، أما القول بأن أحدًا من هؤلاء هو أول من جمع القرآن، فالمراد جمعه بين اللوحين في مصحف واحد.

أما جمع عثمان ﷺ فكان عندما اتسعت رقعة الإسلام وكثرة الفتوحات الإسلامية، وتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار، وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة، فأهل المدينة يقرءون بقراءة أبي بن كعب، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى الأشعري وهكذا.

فكان بينهم اختلاف في وجوه القراءة، ومنشأ هذا الاختلاف إنزال القرآن على سبعة أحرف، كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ بطريق التواتر، وكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الأمصار إذا احتوتهم المجامع أو التقوا على جهاد أعدائهم يعجب كل العجب، وكانوا يمعنون في التعجب والإنكار كلما سمعوا زيادة في اختلاف طرق أداء القرآن، وتأدى بهم التعجب إلى الشك والمداجاة، ثم إلى التأثيم والتكذيب، وتيقظت الفتنة التي كادت تطيح فيها الرءوس، وتسفك فيها الدماء، وتقود المسلمين إلى مثل اختلاف اليهود والنصارى في كتبهم.

وفي ذلك يروي البخاري في صحيحه بسنده عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه، أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافُهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في

المصاحف، ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط والقرشيين الثلاثة: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق» انتهى.

ومعنى قوله: فإنما نزل بلسانهم. أي: أغلبه.

وكان نسخ هذه المصاحف بإشراف الخليفة عثمان وأعلام الصحابة من المهاجرين والأنصار، وكانوا لا يكتبون في هذه المصاحف شيئًا إلا بعد أن يعرض على الصحابة جميعًا، ويتحققوا أنه قرآن وأنه لم تنسخ تلاوته، وأنه استقر في العرضة الأخيرة فلم يكتبوا ما نسخت تلاوته، ولا ما لم يكن في العرضة الأخيرة، ولا ما كانت روايته آحاد، كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة؛ شرحًا لمعنى أو بيانًا لناسخ أو منسوخ أو نحو ذلك.

مثل: «فامضوا إلى ذكر الله» بدل «فاسعوا»: ونحو «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبًا» بزيادة كلمة صالحة إلى غير ذلك.

وقد كتبوا مصاحف متعددة، فصوب ابن عاشر أنها ستة المكي والشامي والكوفي والمدني العام الذي سيّره عثمان من محل نسخه إلى مقره، والمدني الخاص الذي حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام، وقيل هي ثمانية وقيل خمسة، ولعل القول بأن عددها ستة هو أولى الأقوال بالقبول، على أن معرفة العدد لا يتعلق به كبير غرض ما دام عثمان ﷺ استنسخ عددًا من المصاحف يفي بحاجة الأمة وجمع كلمتها وإطفاء فتنتها؛ لأن عثمان ﷺ قصد بذلك إرسال ما وقع الإجماع عليه إلى أقطار بلاد المسلمين، وهي الأخرى متعددة.

وقد كتبوها متفاوتة في الإثبات والحذف والبدل وغيره، لأنه ﷺ أراد بذلك اشتمالها على الأحرف السبعة.

وجعلوها خالية من النقط والشكل؛ تحقيقًا لهذا الاحتمال أيضًا. فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجردها من النقط والشكل، نحو «فتثبتوا» من قوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ (الحجرات:٦). فإنها تصلح أن تقرأ «فتثبتوا» عند خلوها من النقط والشكل، وهي قراءة أخرى متواترة.

وكذلك كلمة «ننشزها» من قوله تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ (البقرة:٢٥٩). فإن تجردها من النقط والشكل كما ترى يجعلها صالحة عندهم أن يقرؤها «ننشزها» بالزاي، وهي قراءة متواترة أيضًا، وننشرها بالراء المهملة، وكذلك كلمة «أف» التي ورد إنها تقرأ بروايات عديدة بين متواتر وشاذ فتجردها من النقط والشكل يجعلها صالحة كذلك لتقرأ بأي وجه ورد فيها.

أما الكلمات التي لا تدل على أكثر من قراءة عند خلوها من النقط والشكل مع أنها ورد فيها قراءات أخرى، فإنهم كانوا يكتبونها في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي البعض برسم آخر يدل على القراءة الثانية، كقراءة ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ (البقرة:١٣٢). بالتضعيف، وفي أخرى: «وأوصى بها إبراهيم بنيه» بزيادة الهمزة، وهما قراءتان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ (البقرة:١٣٢).

وهكذا وقد امتازت هذه المصاحف التي نسخها عثمان ﷺ على الوضع المتقدم، وأرسلها إلى الأمصار، وأرسل مع كل مصحف إمامًا عدلاً ضابطًا، تكون قراءته موافقة لما في هذا المصحف غالبًا.

فأمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمصحف المدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع

الكوفي، وعامر بن قيس مع البصري، وقد قام التابعون بعد ذلك مقام الصحابة، ثم تفرغ جماعة للقراءة و الإقراء والتعلم والتعليم، حتى صاروا أئمة يُقتدى بهم ويؤخذ عنهم.

وأجمع كل أهل بلد على تلقي قراءتهم، واعتماد روايتهم، ومن هنا نسبت القراءة إليهم، وأجمعت الأمة ـ وهي معصومة من الخطأ في إجماعها ـ على ما في هذه المصاحف وعلى ترك ما سواها؛ إذ أنه لم يثبت عندها ثبوتًا متواترًا أنه من القرآن إلا في هذه المصاحف.

وقد حظيت المصاحف العثمانية بكل الرضا والقبول من أصحاب رسول الله ﷺ جميعًا، فوقفوا منها موقف التأييد والمؤازرة، واستجابوا لنداء الخليفة عثمان فحرّقوا مصاحفهم، واجتمعوا على المصاحف العثمانية.

وأما ما ورد من أن عبد الله بن مسعود أنكر بادئ ذي بدء على عثمان عمله في المصاحف، فلأنه آثر عليه في كتابتها زيد بن ثابت، مع قدم إسلام ابن مسعود على زيد، فكان يرى أنه أحق منه بهذه المهمة، ولكنه ما لبث أن رجع مستجيبًا مقرًا لما صنعه عثمان واتفقت عليه كلمة الصحابة، وقد أخرج ابن أبي داود بسند صحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا. فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله».

قال: ما تقولون في هذه القراءة؟! فقد بلغني أن بعضهم يقول إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرًا.

قلنا: فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فُرْقة ولا اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت.

وورد عن عليّ كذلك أنه قال: لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان. انتهى.

فرضي الله عن عثمان فقد أرضى بذلك العمل الجليل ربّه وحافظ على القرآن، وجمع كلمة الأمة، وأغلق باب الفتنة، ولا يزال المسلمون يقطفون من ثمار صنيعه هذا إلى اليوم وما بعد اليوم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

فكيف بعد ما علمت من تلك العناية والحيطة والتثبت من رسول الله ﷺ ومن أصحابه من بعده بالقرآن الكريم من يوم نزوله إلى أن تلقته الأمة بالقبول والرضا والإجماع، وإلى أن تقوم الساعة، كيف يستساغ لهؤلاء المغرضين المعوّقين القول بأن نص القرآن الموجود قد حصل فيه اضطراب كبير وتحريف وتبديل وزيادة ونقصان، مستدلين على سخافة أقوالهم بما أوردوه من أدلة، هي ليست في الحقيقة أدلة، وإنما هي سهام يسددونها إلى الدين الإسلامي، ويتخذون من علوم القرآن مثارًا لشبهات يلفقونها زورًا وبهتانًا ويروجونها ظلمًا وعدوانًا، وسنرد على هذه الأدلة بما يقنع كل عاقل، ويرد كل ضال إلى صوابه.

أما قولهم أولاً: إن طريقة كتابة القرآن وجمعه كانت بدائية، إلخ.

فنقول نقضًا لكلامهم هذا: إن ما ثبت في طريقة كتابة القرآن في عهد رسول الله ﷺ وجمع أصحابه له من بعده وتثبتهم من كل آية يكتبونها، وأنها كتبت بين يديه وبتوقيف منه، ووضعهم الآية بعد الآية مرتب الآيات بأمر من رسول الله ﷺ في كل رقعة أو عظمة، وإن كانت العظام والرقاع منتشرة ومبعثرة، لكن كما سبق قرّرنا أن الاعتماد كان على الحفظ والتلقي قبل كل شيء، فلم يكن التعويل على المكتوب وحده، فلا جرم كان في الحفظ والكتاب معًا أكبر ضمان للنظام والترتيب والضبط والحصر لآيات القرآن، فهذا كله لأكبر دليل على بطلان قولهم، وعلى رد سهامهم الموجهة إلى القرآن في نحورهم، وأن أدلتهم التي أوردوها لذلك باطلة لا سند لها ولا حجة عليها.

وأما قولهم واحتجاجهم: بأن كثيرًا من آيات القرآن لم يكن لها قيد سوى الحفظ في صدور الصحابة، وقد قتل كثير منهم، وذهب معهم ما كانوا يحفظونه.

فهذا القول لا يسلم لهم: لأن نفس ما كان يحفظه الشهداء من القراء كان يحفظه كثير غيرهم أيضًا من الأحياء الذين لم يستشهدوا ولم يموتوا، وكان الصحابة حينذاك زهاء اثني عشر ألف رجل، بينهم الجم الغفير من الحفاظ والقراء، بدليل قول عمر ﷺ: «وأخشى أن يموت القراء من سائر المواطن».

ومعناه أن القراء كلهم لم يموتوا، إنما المسألة مجرد خشية وخوف، ومعلوم أن أبا بكر ﷺ كان من الحفاظ، وكذلك عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت وغيرهم كثير، وقد عاش هؤلاء حتى جمع القرآن في الصحف، وعاش منهم كثير حتى نسخ في المصاحف، وحينئذ فكتابة زيد هي كتابة لكل القرآن لم تفلت منه كلمة ولا حرف، فدعواهم أنه سقط من القرآن شيء بموت بعض الحفظة دعوى باطلة، ولا سند لها بعد هذا البيان.

وأما دعواهم: أن ما ضاع من القرآن في زعمهم الباطل لم يكن مكتوبًا، فضاع لفظه وبقي معناه، وهو ما يسمى بالمنسوخ لفظًا وبقي معنى.

فهذه دعوى باطلة: من أساسها كذلك؛ لأننا أقمنا الدليل الواضح على أن القرآن الكريم لم يفلت منه شيء، لا كلمة ولا حرف، فهو من نزوله محفوف بالعناية الربانية قبل عناية الرسول وصحابته به، وذلك أخذًا من وعد الله تعالى بحفظه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:٩). وبما أقمنا من الأدلة على عناية الصحابة في الاستوثاق في جمعه وترتيبه وحفظه، وأما مسألة الناسخ والمنسوخ فهذا باب طويل في علوم القرآن وفي علم الأصول، وقد ثبت بالكتاب والسنة، ولا سبيل لإنكاره، وقد وضعت فيه الكتب الكثيرة، وكتب التفسير وعلوم القرآن حافلة به، قال تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (البقرة:١٠٦).

فلا معنى لقولهم: وهو ما زعم العلماء بأنه قسم من القرآن نسخ لفظه وبقي معناه، ويعنون بذلك القسم الضائع من القرآن في زعمهم الباطل.

وأما قولهم: إن الصحابة كانوا يحذفون من القرآن ما يرون المصلحة في حذفه، فقد حذف عليّ آية المتعة وأسقطها، وكان يضرب عليها، وهذا مما شنعت به عائشة عليه، فقالت: إنه كان يجلد على القرآن وينهى عنه. وقد حذف عبد الله ابن مسعود الفاتحة والمعوذتين، ونجد أبي بن كعب أضاف إلى المصحف سورتي الخلع والحفد.

وقد وجدنا نصوصًا تدل على أن النبي ﷺ كان ينسى بعض القرآن؛ بدليل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعلى: ٦-٧).

وقوله نفسه ﷺ : **«لقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها»، وفي رواية «كنت أسقطتهن من المصحف»**.

فنقول ردًا على قولهم: إن الصحابة كانوا يحذفون من القرآن، إلخ: هذا قول باطل من أصله، ومردود عليهم؛ لأن قولهم هذا قائم على إهمالهم النصوص الصحيحة، المتضافرة على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن؛ ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر، وردوا كل ما لم يثبت تواتره؛ لأنه غير قطعي، ويأبى عليهم دينهم وعقيدتهم أن يقولوا بقرآنية ما ليس بقطعي.

وقد سبق لك بيان ما وضعوه من الدساتير المحكمة الرشيدة في كتابة الصحف على عهد أبي بكر، وكتابة المصاحف على عهد عثمان، فارجع إليها إن شئت لتعرف مدى إمعان هؤلاء المبطلين في التجني على أصحاب رسول الله ﷺ ، فإذا كان هؤلاء الطاعنون يريدون أن يلمزوا الصحابة ويعيبوهم بحيطتهم البالغة في كتاب الله، إلا أنهم أسقطوا ما لم يتواتر، وما لم يكن في العرضة الأخيرة، وما نسخت تلاوته.

وكان يقرؤه من لم يبلغه النسخ، نقول لهم إذا كانوا يريدون أن يعيبوا على الصحابة ويلمزوهم بذلك:

فالأولى لهم أن يلزموا أنفسهم وأن يواروا سوأتهم؛ لأن المسلمين كانوا ولا يزالون أكرم على أنفسهم من أن يقولوا في كتاب الله بغير علم، وأن ينسبوا إلى الله ما لم تقم عليه حجة قاطعة، وأن يسلكوا بالقرآن مسلك الكتب السابقة من التوراة المحرَّفة والأناجيل المبدَّلة، من نحو ما قصَّه علينا القرآن من أعمالهم المخزية في كتبهم، كقوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ (المائدة: ٤١).

وقوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة: ١٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٨). قبَّحهم الله في الدنيا والآخرة.

وأما قولهم: إن عليًا حذف آية المتعة، وأضاف أبي بن كعب إلى المصحف سورتي الخلع والحفد فهو كلام باطل كذلك؛ لما يأتي:

أولاً ـ أن آية المتعة التي يزعمونها وصيغة القنوت التي يحكون لم تثبت قرآنيتهما حتى يكونا في عداد القرآن ثم حذفتا، وإن ادّعوا أنهما من القرآن فعليهم الإتيان بالدليل على ما يدعون، قال الإمام أبو بكر الباقلاني في كتابه «الانتصار لنقل القرآن»: إن كلام القنوت المروي من أن أبي بن كعب أثبته في مصحفه، لم تقم الحجة على أنه قرآن منزَّل من عند الله، بل هو ضرب من الدعاء، وأنه لو كان قرآنًا لنقل إلينا نقل القرآن وحصل العلم بصحته.

ثم قال: ويمكن أن يكون منه كلام كان قرآنًا منزَّلاً، ثم نسخ وأبيح الدعاء به، وخلط بما ليس بقرآن، ولم يصح عنه ذلك، إنما روى عنه أنه أثبته في مصحفه، وقد أثبت في مصحفه غيره مما ليس بقرآن من دعاء أو تأويل، وهذا الدعاء هو القنوت الذي أخذ به السادة الحنفية، وبعضهم ذكر أن أبيًا ﷺ كتبه في مصحفه وسماه سورة الخلع والحفد لورود مادة هاتين الكلمتين فيه، على أننا أشرنا فيما

سبق أن بعض الصحابة كان يكتب لنفسه صحفًا أو مصحفًا خاصًا به، وربما كتب فيه ما ليس بقرآن مما يكون تأويلاً لبعض ما غمض عليه من معاني القرآن، أو مما يكون دعاء يجرى مجرى أدعية القرآن في أنه يصح الإتيان به في الصلاة عند القنوت، مع علمهم أن ذلك ليس بقرآن، ولكن لندرة أدوات الكتابة حينذاك، ولكونهم كانوا يكتبون لأنفسهم وحدهم دون غيرهم هوّن عليهم ذلك؛ لأنهم أمنوا على أنفسهم اللبس واشتباه القرآن بغيره، فظن بعض قصار النظر أن كل ما كتبوه فيها إنما كتبوه على أنه قرآن، مع أن الحقيقة ليست كذلك، أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ أتى عليه حين من الدهر نهى عن كتابة غير القرآن، إذ يقول ﷺ فيما يرويه مسلم: **«لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه»**.

وذلك مخافة اللبس والخلط والاشتباه في القرآن، وقد سبق أن قررنا بأن الصحابة أجمعوا على المصاحف التي كتبها عثمان ﷺ، واستجابوا له جميعًا في حرق ما عداها مما لم تثبت قرآنيته.

وأما قولهم: إن عبد الله بن مسعود حذف الفاتحة والمعوذتين من القرآن فهو قول باطل ومردود بأن ابن مسعود لم يصح عنه هذا النقل الذي تمسكوا به من إنكاره كون المعوذتين والفاتحة من القرآن.

قال النووي في شرح المهذب ما نصه: «أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد شيئًا منها كفر، وأما ما نقل عن ابن مسعود فباطل ليس بصحيح».

وقال ابن حزم في كتاب القدح المعلى: «هذا كذب على ابن مسعود وموضوع». بل الذي صح عن ابن مسعود نفسه قراءة عاصم، وفيها المعوذتان والفاتحة، وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر «أنه ﷺ قرأهما في الصلاة»، زاد ابن حبان من وجه آخر عن عقبة أيضًا: فإن استطعت ألا تفوتك قراءتهما في صلاة فافعل»، وأخرج أحمد من طريق أبي العلاء ابن الشخير عن رجل من

الصحابة أن النبي ﷺ أقرأنا المعوذتين، وقال له: «**إذا أنت صليت فاقرأ بهما**»، وإسناده صحيح.

ويحتمل أن إنكار ابن مسعود لقرآنية المعوذتين والفاتحة على فرض صحته كان قبل علمه بنزولهما، فلما تبين له قرآنيتهما بعد التواتر وانعقد الإجماع على قرآنيتهما كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن، وقال بعضهم: ويحتمل أن ابن مسعود لم يسمع المعوذتين من النبي ﷺ ولم تتواتر عنده فتوقف في أمرهما، وإنما لم ينكر ذلك عليه لأنه كان بصدد البحث والنظر، والواجب عليه التثبت في هذا الأمر، فلما تثبت من هذا الأمر وتبيّنه لم ينكره.

ولعل هذا الجواب هو الذي تستريح إليه النفس؛ لأن قراءة عاصم عن زرعة عن ابن مسعود ثبت فيها المعوذتان والفاتحة، وهي صحيحة، ونقلها عن ابن مسعود صحيح، وما يقال في رد إنكاره في المعوذتين يقال في الفاتحة، فإن نقل إنكاره للفاتحة أدخل في البطلان وأعرق في الضلال باعتبار أن الفاتحة أم القرآن، وقيل: إنها نزلت مرتين وإنها السبع المثاني، وتتكرر في كل ركعة من ركعات الصلاة على لسان كل مسلم ومسلمة.

على أننا إن سلمنا أن ابن مسعود أنكر المعوذتين والفاتحة، أو أنكر القرآن كله وحاشاه ذلك، فإن هذا الإنكار لا يضرنا في شيء؛ لأنه لا ينقص تواتر القرآن، ولا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر.

ولم يقل أحد في الدنيا: إن من شرط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف، وإلا أمكن هدم كل التواتر، وإبطال كل علم قام عليه، بمجرد أن يخالف فيه مخالف ولو لم يكن ذا شأن.

قال ابن قتيبة في «مشكل القرآن»: «ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن؛ لأنه رأى النبي ﷺ يعوّذ بهما الحسن والحسين، فأقام على ظنه، وأنهما من الأدعية».

ولا نقول: إنه أصـاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصـار، وعلى كل حال إذا كان إنكار ابن مسعود للمعوذتين جاء من طـريق صححه ابن حجر فليعمل هذا الإنكار على أولى حالات ابن مسعود كما قررنا جمعًا بين الروايتين.

وأما قولهم: قد وجدنا نـصوصًا تدل على أن النبي ﷺ كـان ينسى بعض القرآن؛ بدليل الاستثـناء في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعلى: ٦). وقوله نفـسه ﷺ: **«لقد أذكرني آية كذا وكذا كنت أنسيتها»**، وفي رواية: **«كنت أسقطتهن من المصحف»**، إلخ.

نرد على ذلك بأن: هذا النص الذي أوردوه لا يكون حجـة لهم في هذا الزعم الباطل والشـك البين في الأصل المتين الذي قامت علـيه كتابة القرآن وجـمعه في جميع أطواره.

فإن هذا الأصل سليم قويم، وهو وجود هـذه الآيات مكتوبة في الوثائق التي استكتبـها الرسول ﷺ، ووجودها محـفوظة في صدور أصحابه الـذين تلقوها عنه، والذين يبلغ عددهم مبلغ التواتر، وأجمعوا جميعًا على صحته.

كما عرف ذلك في دسـتور جمع القرآن من قبل، إنما غايـة ما يدل عليه هذا الحديث هو أن قراءة ذلك الرجل ذكرت النبي ﷺ تلك الآية التي كان قد أنسيها أو أسقطها نسيانًا.

وهذا النوع من النسيـان كما قال العلامة الزرقاني: لا يزعـزع الثقة بالرسول ولا يشكك في دقة جـمع القرآن ونسخه، فإن الرسول ﷺ كـان قد حفظ هذه الآيات من قبل أن يحفظها ذلك الرجل، ثم استكتبها كُتَّاب الوحي، وبلغها الناس فحفظوها عنه ومنهم هذا الرجل صاحب هذه الرواية، وهو عباد بن بشار رضي الله عنه على ما روى، وليس فـي هذا الحديث الـذي ذكروه ما يدل عـلى أن هذه الآية أو الآيات لـم تكن بالمحفوظات التي كتبها كُتَّاب الوحي، ولا ما يدل على أن أصحاب الرسول كانوا قد نسوها جميـعًا حتى يخاف عليها وعلى أمـثالها الضياع ويخشى عليـها السقوط عند الجمع واستنساخ المصحف الإمام كما يفترى هؤلاء الأفاكون.

فإن الرواية للحديث نفسها تثبت صراحةً أن في الصحابة من كان يقرؤها ويسمعها الرسول منه، ثم إن دستور جمع القرآن الذي تقدم يؤيده أنهم كانوا لم يكتبوا في المصحف إلا ما يظاهر فيه الحفظُ الكتابةَ والإجماع على قرآنيته، ومنه هذه الآيات التي هي ذات الموضوع وموضع الإشكال.

ثم لا يغيب عنك في هذا المقام معرفة شيئين:

الأول - أن كلمة «أسقطتهن» في بعض روايات الحديث، معناها أسقطتهن نسيانًا تدل على ذلك كلمة «أنسيتها» في الرواية الأخرى.

ومحال ثم محال أن يراد به الإسقاط عمدًا؛ لأن الرسول الأمين ﷺ لا ينبغي له، ولا يعقل منه أن يبدِّل شيئًا في القرآن بزيادة أو نقص من تلقاء نفسه، وإلا لكان خائنًا أعظم الخيانة فيما يبلِّغ عن ربه، والخائن لا يمكن أن يكون رسولاً وحاشاه ذلك، هذا ما يحكم به العقل المجرد عن الهوى، وكذلك حكم النقل أيضًا في كتاب الله.

قال تعالى في هذا المقام: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٥-١٦).

وقد سبق أن بيّنا أن الله قد وعد بحفظ كتابه من كل نائلة وطائلة، فلم تمتد إليه يد العابثين بتحريف ولا تبديل، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

الشيء لثاني - أن روايات هذا الخبر لا تفيد أن هذه الآيات التي سمعها الرسول ﷺ من عباد بن بشار قد امّحت من ذهنه الشريف جملةً، وغاية ما تفيده أنها كانت غائبة عنه، ثم ذكرها وحضرت في ذهنه بقراءة عباد، وغيبة الشيء عن الذهن أو غفلة الذهن عن الشيء غير محوه منه؛ بدليل أن الحافظ منا

لأي نصٍّ من النصوص قد يغيب عنه هذا النص إذا اشتغل ذهنه بغيره، وهو يوقن في ذلك الوقت بأنه مخزون في حافظته بحيث إذا دعا إليه داعٍ استعرضه واستحضره ثم قرأه، أما النسيان التام المراد به امّحاء الشيء من الحافظة، فإنه مستحيل على النبي ﷺ، وخاصة فيما يُخلّ بوظيفة الرسالة والتبليغ.

فإن عرض له من النوع الأول شيء فهو كطيف خيال لم يمر إلا ليزول، ولاشك في أن نسيان الرسول هنا كان بعد أن أدى وظيفته وبلغ الناس القرآن وحفظوا عنه، فهو نسيان لم يخل بالرسالة والتبليغ كما سبق.

قال البدر العيني في باب «نسيان القرآن من شرحه لصحيح البخاري» ما نصه: وهو قول الجمهور كذلك «جاز النسيان عليه» «أي على النبي ﷺ» فيما ليس طريقه البلاغ والتعليم «بشرط أن لا يقر عليه، بل لابد أن يذكره»، وأما غيره مما ليس الشأن فيه التبليغ فلا يجوز قبل التبليغ، وأما نسيان ما بلغه كما في هذا الحديث فهو جائز بلا خلاف. اهـ.

وقد طعن البعض في رواية هذا الحديث واتهمها بالوضع والدس، لكن نص البعض على أن الخبر صحيح رواه الشيخان.

ففي صحيح البخاري عن هشام عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد، فقال: **«يرحمه الله لقد اذكرني كذا وكذا آية من سورة كذا»**، زاد في رواية أخرى ما معناه: **«كنت قد أسقطتهن من سورة كذا وكذا»**.

وفي صحيح مسلم عن هشام عن أبيه عن عائشة أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ من الليل، فقال: **«يرحمه الله لقد اذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتها من سورة كذا وكذا»**، وأنت تعلم أن معنى الإسقاط هنا النسيان كما سبق؛ بدليل الرواية الأخرى، ففي التبيان للنووي ما نصه: وثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقرأ، فقال: **«يرحمه الله لقد أذكرني آيةً كنت أسقطتها»**، وفي رواية في الصحيح: **«كنت انسيتها»**. انتهى فسبحان من لا يضل ولا ينسى.

وأما استدلالهم على أن الرسول كان ينسى بدليل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعلى: ٦).

فهذا الاستدلال لا يقوم حجة على زعمهم الباطل وذلك لأنه استثناء صوري لا حقيقي، والحكمة فيه أن يعلم الله عباده أن عدم نسيان الرسول الذي وعده الله إياه في قوله: ﴿ فَلا تَنسَىٰ ﴾. إنما هو محض فضل من الله وإحسان، ولو شاء سبحانه أن ينسيه لأنساه.

وإن في هذا الاستثناء الصوري لفائدتين عظيمتين:

الأولى - ترجع إلى النبي ﷺ حيث يشعر دائمًا أنه مغمور بنعمة الله ورعايته ما دام متذكرًا للقرآن لا ينساه.

والثانية - تعود على أمته حيث يعلمون أن نبيهم ﷺ مهما خصه الله من عطايا ونعم لم يخرج عن دائرة العبودية والبشرية، فلا يفتنون به كما افتتن النصارى في المسيح ابن مريم.

أما الدليل على أن هذا الاستثناء صوري لا حقيقي ما جاء في سبب النزول لهذه الآية، وهو أن النبي ﷺ كان يتعب نفسه بكثرة القراءة للقرآن حتى وقت نزول الوحي، مخافة أن يفلت منه شيء أو ينساه.

فاقتضت رحمة الله تعالى بحبيبه وبرسوله أن يُطمئنه من هذه الناحية، ويريحه من هذا الخوف؛ فنزلت هذه الآية كما نزلت آية: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (القيامة: ١٦-١٧). وآية: ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤).

على أن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾. فيه تعليق وقوع النسيان على مشيئة الله، وقد تكفل الله تعالى بحفظه إياه في نحو قوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (القيامة: ١٧). وإذن النسيان لم يقع، للعلم بأن عدم حصول المعلق عليه يستلزم عدم حصول المعلَّق، فالذي عنده تذوق لأساليب اللغة ونظر في وجوه الأدلة لا يتردد

في أن الآية وعد أكيد من الله بأن الرسول يقرئه الله فلا ينسى، وعدًا منه على وجه التأبيد.

من غير استثناء حقيقي لوقت من الأوقات، وإلا لما كنت الآية مطمئنة له عليه الصلاة والسلام، ولكان نزولها أشبه بالعبث ولغو الكلام ويقول بعض العلماء: إن هذا ضرب من استعمال القلة في معنى النفي، وعليه جاء الاستثناء في قوله تعالى في سورة هود عليه السلام: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ (هود:١٠٨). أي مقطوع، فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد بمحض كرم الله وسعة جوده لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع.

وكل ما ورد من أنه ﷺ نسي شيئًا كان يذكره، فذلك إن صح فهو في غير ما أنزل الله من الكتاب في الأحكام التي أمر بتبليغها، وكل ما يقال غير ذلك فهو من مفتريات المبطلين ومُدْخَلات الملحدين، التي دخلت على عقول السذج والمغفلين، فلوثوا بها ما طهره الله من كل الدنايا، ورباه على عينه، واصطنعه لنفسه، وشرفه على جميع خلقه، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب تلك الشريعة السمحاء ويؤمن بكتاب الله أن يتعلق بشيء من ذلك.

هذا رأي في معنى الاستثناء، وهناك رأي آخر فيه، وهو أنه استثناء حقيقي غير أن المراد بهذا المستثنى منسوخ التلاوة من القرآن دون غيره، ويكون معنى الآية أن الله تعالى يقرئ نبيه فلا ينسيه إلا ما شاءه، وهو ما نسخت تلاوته لحكمة من الحكم التي بيَّنها العلماء في مبحث النسخ: بدليل قوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ (البقرة:١٠٦).

وعلى كل حال: فالاستثناء في الآية: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ (الأعلى:٦-٧). لا يفهم منه أن الرسول ﷺ نسي حرفًا واحدًا مما أمر بتلاوته وتبليغه للخلق، وذلك إن أريد بالنسيان المحو التام من الذاكرة.

أما إن أريد به غيبة الذهن عنه في وقت ما من الأوقات، فقد سبق بيان القول فيه قريبًا، والله يرشدك.

أما ما نسبوه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي: فهي نسبة كاذبة، وفرية لا برهان لهم بها، ولا دليل لهم عليها.

وها هو التاريخ خير شاهد وعادل، فليأتوا لنا منه بدليل بيّنٌ على أن الحجاج جمع المصاحف في يوم ما من الأيام، فضلاً عن أنه نقص منها أو زاد فيها، ولو أنه فعل ذلك لنقل إلينا بالتواتر؛ لأن هذا أمر ليس بالهين، بل هو من الأمور التي تتوافر الدواعي على نقله وتواتره، ثم كيف يفعل ذلك والأمة كلها تقرأ القرآن وأئمة الدين الموجودون في عهده كالحسن البصري وغيره يسكتون ولا ينكرون ولا يدافعون، على أن الحجاج كان عاملاً من العمال على بعض أقطار الإسلام كالعراق والحجاز والبحرين وما جاورها من هذه المنطقة، فأنى له أن يجمع المصاحف، ويحرقها في غير ولايته التي هو عامل عليها، وإذا فرض أن الحجاج كان له من السلطة والقوة ما يُسكت به من كانوا في زمانه - على أن هذا خطب جلل، وفعلة نكراء، وخرق واسع في الإسلام والقرآن - فما الذي أسكت المسلمين وحماة الدين بعد انقضاء عهد الحجاج، ولو استطاع الحجاج أن يتحكم في المصاحف، ويتلاعب فيها بالزيادة أو النقص، فكيف يستطيع التحكم في قلوب الحفاظ وهم الآلاف المؤلفة في ذلك العهد، حتى يستطيع أن يمحو فيها ما شاء ويثبت ما أراد.

فهذه دعوى باطلة تحمل بطلانها في ألفاظها، وتدل على جرأة هؤلاء الملحدين، وإغراقهم في الجهل والضلال، وكل الذي نُسب إلى الحجاج أنه كان واليًا فيه شدة وقسوة وظلم وعدوان في ولايته، أمات بها النخوة العربية والشهامة البدوية، فقتل من قتل، ونفى من نفى من المسلمين؛ لكن التاريخ لم يثبت أنه تعرض في شدته وقسوته لأي ناحية عقدية أو قرآنية.

فإن قيل: إن الإمام أبا بكر البـاقلاني قال في كتابه «الانتصـار لنقل القرآن»: وقد روى الناس عن الحجاج أنه غيَّر حروفًا من مـصاحفهم، وأسقط حروفًا كانت فيهـا. كذلك وقد روى أن الحجاج قـدم العراق، ولم يكن أحد مـن الأمراء أشد نظرًا في المصاحف منه، وكان الناس يكتبون في مـصاحفهم «أشياء أشياء»، فكانوا يكتبون «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، «وليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج» وأشياء غير هذا.

فبعث الحجاج إلى حفاظ البصرة وخطـاطها، فجمعهم عنده، ثم أدخل عليه منهم خمسة، هم: «أبو العالية، ونصر بن عاصم الجحدري، وابن أصمع، ومالك ابن دينار، والحســن» وبعث إلى الحجاج فأتى لـه بمصحف عثمـان، وهو حينذاك عند آل عثـمان، فقال لهؤلاء الخـمسة: اكتبوا المصـاحف واعرضوا وصيروا فـيما اختلفـتم فيه إلى قـول هذا الشيخ ـ يعني الحـسن ـ فغيّـروا أحد عشر حرفًـا بأمر الحسن والجماعة المذكورة.

قال الراوي قلت لمالـك: من ولي له العرض؟ قال: عاصم الجـحدري. قلت الحسن فيهم؟ قال: كان شيخهم، وسألنا عن حـروفه فحسبنـاها «فأجبناه» فقـال: قد أصبتـم وأحـسنتم، وعمـلناه له فـي أربعة أشهر.

وقيل: إن الحجاج كان يختم القرآن في كل ليلة. فهذه جملة أدلة تكشف فيها عن بطلان ظنهم، وما نسبوه للحجاج من أنه غيّر في المصحف وزاد ونقص فيها. وفي بعض الروايات المشهـورة أن الحجاج أمر عاصم الجحدري وابن أصـمع بتتبع المصحـف، وأمرهم أن يقطعـوا كل مصحف وجـدوه مخالفًـا لمحصف عثـمان، ويعطوا صاحبه ستين درهمًا، وهذا لا يعارض ما رويناه من أنه نصب خمسة لهذه المهمـة، فقد جـعل منهم عـاصمًا لـلعرض، وجعـل ابن أصمع باحـثه لتـقطيع المصاحف المخالفة وأداء الدراهم، فمن ظن أن الحجـاج غيَّر شيئًا كان في مصحف عثمان فقد ظن جهلاً، وافترى عليه كذبًا.

ودل بذلك على قصوره عن معرفة ما ركبت عليه العادات العربية، أما واحدة فإن الحجاج كان من شيعة عثمان، فكيف يسوغ لمن هذه حاله الطعن على عثمان؟! وتغيير مصحفه، مع أنه كان يقرأ ويأخذ عن القراء وعن الأستاذين السابقين، ولقد رُوى أنه قال ليحيى بن يعمر: أتسمعني ألحن؟ فقال له يحيى بن يعمر: الأمير من أفصح الناس. قال: لتخبرني. قال: نعم. قال: فيم إذن؟ قال: في القرآن، قال: هو أشنع، قال: في أي موضع؟ قال: في سورة براءة تقرأ «أحب إليكم» برفع قال: لا جرم، لا تسمعنَّ لي لحنًا بعدها فسُيِّر إلى خراسان.

فكيف من كان هذا حفظه وتيقظه ورجوعه إلى العلماء في كل شيء، هل يجوز لظان أن يظن أنه غيرّ في القرآن وبدّل، وكيف يصح له أن يغير وقد علم أنه لو عرض الناس على السيف لم يرجعوا عما أقرأهم به أئمتهم، ولو ساغ لقائل أن يقول: إن الحجاج غيّر ما غيّر وانكتم له ذلك، لساغ لآخر أن يقول: إن عبد الملك غيّره وإن زيادًا غيّره، وانكتم لهم ذلك. فهذا غاية البطلان والضلال.

على أنه لو قال قائل مثل هذا في قصيدة «قفا نبك. . .» أو في الموطأ للإمام مالك أو «ودع هريرة. . .» لكان هذا جاهلاً غاية الجهل بالعادات العربية، فما بالك بالقرآن الذي حفظه رب الأرض والسموات ورب العجم والعرب؟!

قال القاضي أبوبكر الباقلاني: ولو سألنا من يدّعى صنيع الحجاج لذلك ما هذه الحروف التي غيّرها؟ فقال: هي معروف منها قوله: «هو الذي سيركم»، بسكون الياء وفتح الراء، فردها الحجاج «يسيركم في البر والبحر»، ومنها في سورة البقرة «يتسن» من غير هاء جعلها «يتسنه» بالهاء، ومنها «شريعة ومنهاجًا» جعلها «شرعة». وقد علم كل واحد أن هذه الحروف ليس فيها دليل على إثبات خلافة بني أمية وإبطال خلافة ولد عليّ والعباس؛ حتى يقال: إنه قصد بذلك هذا الوجه، ولكن القوم لا يفقهون.

الشبهة الثانية من الباب الثالث:

قالت الرافضة: إن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة أسقطوا من المصاحف كثيرًا من الآيات والسور المشتملة على فضائل أهل البيت وعلى ولاية علي بن أبي طالب وأنه كان لدى علي بن أبي طالب مصحف، وقيل لدى فاطمة: وساقوا أدلتهم على ذلك بما يأتي:

١ - رووا عن جعفر الصادق أنه قال: ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه إلا عليّ والأئمة من بعده. وكذا ما رووا عن ابن عمر - في زعمهم - أنه قال: لا يقولن أحدكم: قد أخذت القرآن كله. فقد ذهب منه كثير، ولكن ليقل قد أخذت ما ظهر منه.

٢ - قد رووا عنه أنه قال: إن عندنا مصحف فاطمة - عليها السلام -. قيل وما مصحف فاطمة؟ قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد.

٣ - رووا عن هشام بن سالم عن جعفر الصادق: أن القرآن المنزل كان سبعة عشر ألف آية. وروى محمد بن نصر عن جعفر الصادق أنه قال: كان في سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ (البينة: ١). اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم.

وروى محمد بن جهم الهلالي وغيره: عنه أيضًا: أن قوله: ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ (النحل: ٩٢). ليس من كلام الله، بل هو محرف، وأصله المنزل: «أمة هي أزكى من أمتكم». وزعموا أن في القرآن سورة تسمى سورة الولاية أسقطت بتمامها، وأن سورة الأحزاب كانت كالأنعام طولاً، فأسقطوا منها فضائل أهل البيت، وأنهم أسقطوا لفظة «ويلك»، من قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠). ولفظة «بعلي بن أبي طالب» من قوله: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ (الأحزاب: ٢٥). ولفظة «آل محمد» من قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧). فالقرآن الذي بأيدي المسلمين الآن في مشارق الأرض ومغاربها محرّف أكثر من التوراة والإنجيل في نظر أولئك البعض من غلاة الشيعة، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ونرد على هذه الشبهة: بأن هذه كلها أباطيل وهذيان ومفتريات، ليس لها أي نصيب من الصحة؛ لأنها لا تستند لأي دليل، ولا تستحق أن تذكر ليرُد عليها، لولا أن بعض غلاة الشيعة وبعض الملحدين يرددونها من حين لآخر وربما يخدع بها بعض ضعاف العقيدة، ويكفي في كونها مفتريات وأباطيل أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا لها دليلاً أو ينصبوا عليها برهانًا، ولكن ما الحيلة إذا كانت الشقاوة قد كُتبت لهؤلاء السفهاء في الأزل، فلا حول ولا قوة إلا بالله من سوء الختم، على أن بعض علماء الشيعة أنفسهم تبرأ من هذا السخف، وذاك الإفك، ولم يطق أن يكون هذا منسوبًا إليهم وهو منهم، فقد نسب ذلك إلى بعضٍ من الشيعة من غاب عنهم الصواب وضل بهم التفكير.

قال الطبرسي ـ وهو من أكبر رؤساء الشيعة ـ في كتابه «مجمع البيان» وهو المرجع عندهم. قال ما نصه: «أما الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها، وأما النقصان فهو أشد استحالة»، ثم قال: «إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة. فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم يبلغه شيء في الوجود، لأن القرآن مَفْخَرة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية وعلماء المسلمين قد بلغوا في حمايته الغاية القصوى، حتى عرفوا كل شيء اختُلف فيه من تفسيره وأحكامه وإعرابه وقراءاته ورسمه وضبطه وعدد آياته وعدد نقطه وحركاته، فكيف يتخيل عاقل بعد تلك العناية الفائقة بالقرآن الكريم أن يحصل فيه نقص أو زيادة مع هذا الضبط الشديد». انتهى طبرسي مع شيء قليل من التصرف في العبارة والتغيير في بعض الألفاظ.

ثم إن التواتر قد حصل والإجماع قد انعقد على أن الموجود بين دفتي المصحف هو كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير ولا تبديل. والتواتر هو الطريق الواضح في طريق العلم الصحيح، والإجماع سبيل

من سبل الحق ، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣٢). نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ومن الكفر بعد الإيمان.

وأما قولهم إنه كان عند علي بن أبي طالب مصحف غير هذا المصحف، وعند فاطمة كذلك مصحف.. إلخ. وما ساقوه على ذلك من أدلة، مثل قولهم عن جعفر الصادق أنه قال: ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما أنزل إلا عليّ والأئمة من بعده وأن القرآن كان سبع عشر ألف آية إلى آخر تلك المفتريات والمغالطات والكذب المفضوح.

فنقول ردًا على ذلك: نعم إنه كان عند علي بن أبي طالب مصحف، وعند عائشة مصحف، بل كان عند الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم، لكن كما يقول الشيخ عبد الفتاح القاضي في كتابه «تاريخ المصحف»:

إنه اشتهر في عهد الصحابة مصاحف أخرى غير المصاحف العثمانية، بيد أن هذه المصاحف لم تظفر بما ظفرت به المصاحف العثمانية من إجماع الصحابة عليها، ورضاهم بها، ووقوفهم عند ما تضمنه من الأوجه والقراءات الصحيحة، ولم تحرز عند أهل الأقاليم والأمصار ما أحرزته المصاحف العثمانية من الثقة والقبول.

ذلك أن هذه المصاحف التي يزعمونها كانت مصاحف فردية خاصة، كتبها بعض الصحابة لنفسه، ولم يقتصر في كتابتها على ما تواترت قراءته، وثبت في العرضة الأخيرة. بل كتب فيها ما كانت روايته آحاد، وما نسخت تلاوته، وما لم يكن في العرضة الأخيرة، وخلط فيها بين ألفاظ القرآن وما كان شرحًا لها وبيانًا لمغزاها، وهذه المصاحف تختلف عن المصاحف التي نسخها عثمان ﷺ تارة بالزيادة وأخرى بالنقصان، ومرة بالتقديم ومرة بالتأخير، وهكذا، وعلى أي وجه كانت فلا تصح القراءة بما تضمنته هذه المصاحف لمخالفتها ما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم والمسلمون من بعدهم، وما تلقته الأمة كلها بالرضا والقبول.

وإليك نموذجًا من تلك المصاحف:

فهناك مصحف عمر بن الخطاب الذي كتب فيه في سورة الفاتحة: **(صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين)**.

وفيه في أول سورة آل عمران: **(ألم الله لا إله إلا هو الحي القيام)**.

وفي سورة المدثر: **(في جنات يتساءلون يا فلان ما سلكك في سقر)**.

وإليك مصحف علي بن أبي طالب: الذي كتب فيه في سورة البقرة: **(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه وآمن المؤمنون)**.

ومصحف عائشة أم المؤمنين ﵂ الذي كُتب فيه في سورة البقرة: **(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر)**.

وفي سورة الأحزاب: **(إن الله وملائكته يصلون على النبي والذين يصلون في الصفوف الأولى)**.

ومصحف حفصة أم المؤمنين الذي كتب فيه: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر».

ومصحف أم سلمة أم المؤمنين وفيه ما في مصحف حفصة.

ومصحف عبد الله بن الزبير الذي كتب فيه في سورة البقرة: **(ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج)**. وفي سورة المائدة: **(فيصبح الفساق على ما أسروا في أنفسهم نادمين)**. وفي آل عمران: **(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم)**.

ومصحف أُبيّ بن كعب الذي كتب فيه في سورة البقرة: **(فلا جناح عليه الا يطوف بهما)**.

وفي البقرة كذلك: **(للذين يقسمون من نسائهم)**. بدل ﴿**يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ**﴾. وفي سورة النساء: **(فما استمتعتم به منهم إلى أجل مسمى)**. يعني بزيادة إلى **(أجل مسمى)**، وفي المائدة: **(فصيام ثلاثة أيام متتابعات)**.

ومصحف عبد الله بن عباس الذي كتب فيه في البقرة: **(فلا جناح عليه ألا يطوف بهما)** وفيه أيضًا **(ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج)**، وفيها كذلك **(وأتموا الحج والعمرة للبيت)**، وفيها أيضًا: **(وإن عزموا السراح)**، بدل الطلاق، وفي الحج: **(وما أرسلنا من قبلك من رسوله ولا نبي ولا محدَّث)** بفتح الدال مشددة، وفي النصر **(إذا جاء فتح الله والنصر)**، وغير هذا كثير.

وفي مصحف عبد الله بن مسعود، كتب فيه في سورة البقرة: **(وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان ربنا)**، وكذا فيها: **(فلا رفوث ولا فسوق ولا جدال في الحج)** وكذا: **(وتزودوا وخير الزاد التقوى)**، وفي آل عمران: **(وإن حقيقة تأويله إلا عند الله)**، وكذا فيها: **(يا مريم اقنتي لربك واركعي واسجدي في الساجدين)**، وفي النساء: **(إن الله لا يظلم مثقال نملة)**.

وغير ذلك كثير وكثير في القرآن الكريم. وكل ذلك كان عند أصحاب رسول الله ﷺ، ولكن كما عرفت من قبل أنه عندما جمع عثمان المسلمين على مصحف واحد، حرق ما عداه من تلك المصاحف الخاصة، وكان ذلك بموافقة جميع الصحابة في عهده، وقبولهم لعمله ورضاهم به، فليس قول علي رضي الله عنه ببعيد عنك، وهو الذي تزعم الشيعة أنهم يناصرونه ويتشيعون له بهذه الخرافات، فقد صح النقل عنه بتحبيذ جمع القرآن على عهد أبي بكر ثم على عهد عثمان؛ إذ قال في جمع أبي بكر ما نصه: «أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر».

رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله، ثم قال في جمع عثمان ما نصه: «يا معشر الناس اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان»، وقولكم حرّاق المصاحف، فوالله ما حرّقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ، وقوله: «لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان»، وبهذا قطع الإمام عليّ ألسنةَ أولئك المفترين. ورد كيدهم في نحورهم مخذولين. كيف هؤلاء من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين بلغوا رسالته إلى الكون كله، شرقه وغربه، وحملوها على أكتافهم، وأدوها كما سمعوا، وقد فتح الله بهم الروم والشام وبلاد فارس واليمن وغيرها، ولولاهم لما كان للإسلام دولة وسلطنة كما كانت وصارت، وقد كانوا مصداق قول الله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ﴾ (النور: ٥٥).

فكيف لهؤلاء يفترون على أصحاب رسول الله هذه الأكاذيب، وينسبون إليهم تلك الأباطيل، قاتلهم الله أني يؤفكون والرسول ﷺ يقول في أصحابه رضي الله عنهم: **«لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»** (متفق عليه).

وبيّن - عليه السلام - فضلهم وشرفهم. حيث: **«قال ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بُعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة»**. (رواه الترمذي).

وقال عليه الصلاة والسلام: **«إذا رأيتم الذين يسبون أصحابي فقولوا لعنة الله على شركم»**، (رواه الترمذي)، وقد قال في أبي بكر رضي الله عنه: **«إن من أمنَ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر»** (متفق عليه).

وقال في عمر رضي الله عنه: **«إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»**، (رواه الترمذي).

وقال ﷺ فيهما: **«أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين»**. (رواه الترمذي ورواه ابن ماجه عن علي رضي الله عنه).

وقال في عثمان ﷺ: «**لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان**»، (رواه الترمذي). وعن عبد المطلب بن ربيعة: أن العباس دخل على رسول الله ﷺ مغضبًا وأنا عنده؛ فقال: «**ما أغضبك؟**». قال: يا رسول الله ما لنا ولقريش، إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة، وإذا لقونا لقونا بغير ذلك، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمر وجهه ثم قال: «**أيها الناس من آذى عمي فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه**»، (رواه الترمذي). ودعا له ولابنه، فقال: «**اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة، وباطنة، لا تغادر ذنبًا. اللهم احفظه في ولده**». وعنه أنه سئل عليه السلام: من أحب الناس إليك؟ قال: «**عائشة**»، قلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، (متفق عليه).

وكذلك وردت أحاديث في غير هؤلاء من بقية أصحابه ﷺ كعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وخالد بن الوليد ومحمد بن مسلمة والبراء بن عازب وعبد الله بن عمر، وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين مدحهم الله في كتابه ومدحهم، وأثنى عليهم ودعا لهم بالمغفرة الناطق بالوحي. الذي لا ينطق عن الهوى، فدعا لهم، ومدحهم واحدًا واحدًا، وجماعة جماعة.

ويمدحهم ويثنى عليهم كل مَنْ سلك مسلكه، واتبع سبيله من المؤمنين، غير المنافقين وأبناء اليهود والمجوس، ممن أكلت قلوبَهم البغضاءُ والشحناء والحسد عليهم؛ لأعمالهم الجبارة في سبيل الله وسبيل نشر هذا الدين المبارك. وكان هذا هو السبب الحقيقي لحنق الكفرة والملحدين على هؤلاء البررة المجاهدين، العاملين بكتاب رب العالمين وسنة رسوله المصطفى الأمين.

وحقدهم على أبي بكر وعمر وعثمان الذين قادوا جيوش الظَّفْر، وجهزوا عساكر النصر، وكان سبب احتراق اليهود على المسلمين؛ لأنهم هدموا أساسهم، وقطعوا جذورهم، واستأصلوهم استئصالاً ذريعًا تحت راية النبي ﷺ، حين كان أسلافهم من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة يقطنون المدينة. وكذا من بعد النبي الكريم عليه السلام في زمن عمر بن الخطاب ﷺ حين نفّذ فيهم وصية رسول الله ﷺ وهي: «**أخرجوا اليهود من جزيرة العرب**». (رواه البخاري).

وقد طهّر عمر جزيرة العرب من نجاستهم ودسائسهم، ولم يترك لأحد منهم أن يسكن في الجزيرة؛ طبقًا لأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام. ولما فتح الله للمسلمين إيران على يد الفاروق الأعظم، ومزق جموعها، وكسر شوكتها، وهدم نظام الملك فيها، نقم أهل إيران على الفاروق ورُفقته وجنوده، لما جبلوا على الملوكية وأشربوا حبها: ،عند ذلك وجد اليهود المزرعة الخصبة لغرس بذور الفتنة وبث سموم التفرقة بين المسلمين؛ فكان من الاتفاقات أن ابنة يزدجرد ملك إيران «شهربانو» زُوّجت من حسين بن عليّ رضي الله عنهما بعد ما جاءت مع الأسارى الإيرانيين، فلما دبر اليهود لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين عثمان رضي الله عنه ما دبروا، وتترسوا لذلك بعليّ رضي الله عنه بدون إذن منه ومعرفة، وادّعوا الولاية والخلافة لعليّ وأولاده، تعاونهم في ذلك إيران نقمةً على الفاروق ورفقته، وأصحاب الرسول الذين فتحوا إيران، وعثمان الذي وسع نطاق الفتوحات الإسلامية، وأقام اعوجاجهم ونفى بُغاتهم، فأبدى أهل إيران الاستعداد لمعاونة تلك الطائفة اليهودية والفئة الباغية، وخاصةً بعد ما رأوا أن الدم الذي يجرى في عروق عليّ بن الحسين الملقب بزين العابدين، وفي أولاده دم إيراني من قِبل أمه «شهربانو» ابنة يُزدجرد ملك إيران من سلالة الساسانيين المقدسين عندهم.

لأجل هذا دخل أكثر أهل فارس في الشيعة؛ لما يجدون فيها من التسلية بالسباب على الصحابة وعمر وعثمان، فاتحي إيران مطفئي نار المجوسية فيها، ومن هنا اتفقوا مع اليهودية الماكرة، فاتحدوا معهم، وسلكوا مسلكهم في الوقوف ضد الإسلام والمسلمين.

وها هو المستشرق الإنكليزي الذي سكن إيران مدة طويلة ودّرس تاريخها دراسة مستفيضة يقول في صراحة من أهم أسباب عداوة أهل إيران للخليفة الراشد الثاني «عمر» هو أنه فتح إيران. ثم يقول: إن أهل إيران وجدوا في أبناء عليّ بن الحسين تسليةً وطمأنينةً بما كانوا يعرفون من أن أم علي بن الحسين هي بنت ملكهم «يزدجرد».

فرأوا في أولادها حقوق الملك قد اجتمعت لهم مع حقوق الدين. ومن هنا نشأ بينهم علاقة سياسية، وأن أهل إيران يقدسون ملوكهم؛ لاعتقادهم أنهم ما وجدوا الملك إلا من السماء ومن الله، فازدادوا في التمسك بهم. انتهى من تاريخ أدبيات إيران.

على أن اليهود دائمًا لا يهدأون إلا في إشعال نار الفتنة وخاصة بين المسلمين؛ فقد دست عقائد جديدة في الإسلام، بواسطة ابنها البار عبد الله بن سبأ؛ لبناء مذهب جديد، وإنشاء نحلة جديدة باسم الإسلام، وليس للإسلام أي علاقة بها، فمن تلك العقائد التي جعلتها أصل الأصول هي عقيدة الولاية والوصاية، ولقد وردت النصوص المتضافرة عن الشيعة بأن أول من نادى بها هو ابن السوداء.

هذا اليهودي الماكر مع إنكار الشيعة بعلاقتها معه ومع اليهودية، فإنهم لا يبنون عقائدهم إلا على أقواله وآرائه، فها هي الولاية ما جعلوها أساسًا لدينهم إلا كما علَّمهم اليهود وقرروها لهم.

فيذكر محمد بن يعقوب محدثهم الكبير - الذي عرض كتابه على الإمام، وصدقه إمامهم المزعوم الموهوم - يذكر هذا عن فضيل عن أبي جعفر عليه السلام فمن تلك الخرافات:

قال: «بني الإسلام على خمس : الصلاة - والزكاة - والصوم - والحج - والولاية. ولم ينادي بشيء ما نودوا بالولاية يوم الغدير»، والغدير هو موضع بقرب المدينة، وأما قصته والأحاديث الواردة فيها فموضوعة. فارجع إليه إن شئت، وقد نقل ذلك من الكافي في الأصول في باب دعائم الإسلام. فانظر أيها العاقل كيف يختلف القوم مع المسلمين، حيث يقول رسول الإسلام: **«بني الإسلام على خمس: أولها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله....»**، إلخ الحديث، ولكن هؤلاء لا يعدون شهادة التوحيد والرسالة شيئًا. ويفضِّلون الولاية والوصاية على الصلاة والزكاة والصوم والحج، كي يجلبوا

القوم إلى دين جديد؛ طبقًا للخطة المرسومة لهم، وقد صرح الشيعة بأكثر من هذا، حيث قالوا: عن زرارة عن أبي جعفر ـ عليه السلام ـ، قال: «بني الإسلام على خمسة أشياء: الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل، فقال: الولاية»، انتهى. ثم حذفوا الصوم والحج، فقالوا عن الصادق «جعفر» عليه السلام، قال: إن آثافي الإسلام ثلاثة[1]: الصلاة والزكاة والولاية، لا تصح واحدة منها إلا بصاحبتها ومن ثَمَّ تطرقوا إلى حذف الجميع، وإبقاء الولاية وحدها، وليس هذا فحسب، بل روى عن جبه العوفي أنه قال: قال أمير المؤمنين عليّ ﷺ: إن الله عرض ولايتي على أهل السموات وعلى أهل الأرض، أقر بها من أقر، وأنكر بها من أنكر. أنكرها يونس عليه السلام فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقر بها. انتهى.

هذا وغيره أفظع وأجرم منه من أباطيل الشيعة وهذيانها، الذي إن ماتوا عليه ماتوا على غير الملة السمحاء، نعوذ بالله من سوء الخاتمة، فقل لي بربك: من الذي يحرّف ويغيْر ويبدّل ويزيد وينقص في كتاب الله المحفوف بالعناية الربانية؟ أهؤلاء الحمقى أم أصحاب رسول الله الفضلاء؟ هذا وإن كان قد أطلنا بعض الشيء في الكلام عن الشيعة إلا أن ظروف الموضوع هي التي جرّتنا لذلك، فهل بعد هذا ريب لمرتاب أو شك لشاك في أن تلك الفرية ولدتها اليهودية لأغراضها المسمومة، وهم ينكرون الانتساب إليها بعد ما يقرون بآرائها ومعتقداتها التي رُوّجت ودُست في الإسلام.

وما مقصدهم من ذلك إلا إبعاد المسلمين عن تعاليم محمد ﷺ وروحها روح الإسلام القويم. وتعطيل الشريعة الإسلامية السمحاء، فقد عطلوها في اتباعهم فعلاً، حيث قالوا: إن النجاة ليس مدارها على العمل بالكتاب

(١) أي دعائم الإسلام وقواعده.

والسنة، بل مدارها علـى التبني والتمسك بأقوال هؤلاء الملاحـدة، ولو خالفوا في ذلك صريح الكتاب والسنة، فلا يؤخذون عليهـا.

فقد قالوا: إن شارب الخمر ذكر عند جعـفر بن الباقر الإمام المعصوم عندهم. فقال: وما ذلك علـى أن يغفر الله لمحب عليّ. وذكر القمي أكـثر من هذا، فقال عن أبي عبد الله قال: إذا كـان يوم القيامة يدعى محمـد ﷺ وآله فيكسى حلة وردية، ثم يدعى بعـليّ أمير المؤمنين علـيه السلام، ثم يدعى بالأئـمة، ثم يدعى بالشـيعة فيـقومون وإمامـهم، ثم يدعى بفـاطمة ونسائـها من ذريتهـا وشيعتـها، فيدخلون الجنة بغير حساب. انتهى من تفسير القمي (ص١٢٨ جـ١).

وروى الكشي عن أبي عـبد الله: أنه دخل عليه جـعفر بن عفـان. فقال له: بلغني أنك تقول الشعر في الحسين وتجيد. فقال له: نعم جعلني الله فداك. فقال: قل فأنشد. فبكى ومن حوله حتى صارت الـدموع على وجهه ولحيته، ثم قال: يا جعفـر بن عفان والله لقـد شهدك ملائـكة الله المقربون ههنـا يسمعون قـولك في الحسين، ولـقد بكوا كـما بكينـا أو أكثر. ولقـد أوجب الله تعالـى لك يا جعـفر ساعتك الجنة بأسرها، وغفر الله لك.

فقال أبو عبد الله: يا جعفر ألا أزيدك؟ قال: نعم يا سيدي. قال: ما من أحد قال في الحسين شعرًا، فبكى وأبكى، إلا أوجب الله له الجنة وغفر له.

فانظـر حفظك الله كـيف تُعطَّل الشـريعة المحمـدية البيـضاء، وكيـف يلغى أحكامها وأوامـرها عند هؤلاء، وهذا هو المطلوب لهم، والمقـصود عندهم، ومن أجل ذلك كـونت هذه الفتـنة، وأنشئت تـلك الطائفة، وكـتبهـم مليئـة بمثل هذه الدسائس، وعليها يتكلون وبها يعتقدون.

ولكـن الـشريعة التي جـاء بها محمـد الأمين أشرف النبيين وخـاتم المرسلين عليه أفـضل الصلاة وأتم التسـليم ما تخبـرنا إلا بأن النجاة ليس مـدارها إلا على العمل الصالح بعد الإيمان الصادق بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر.

على أننا نقول لهؤلاء المفترين على أصحاب رسول الله ﷺ: إن الخلافة قد انتهت إلى عليّ - كرم الله وجهه - بعد أبي بكر وعمر وعثمان. فإن صح ما تقولون في أن هؤلاء الثلاثة غيّروا وبدّلوا ونقصوا وزادوا في القرآن، فما الذي منع عليًّا رضي الله عنه وقتئذ أن يجهر بالحق في القرآن وأن يصحح للناس ما أخطأت فيه أسلافه على هذا الزعم والبهتان الباطل مع أنه الإمام المعصوم وقتئذ في عقيدة أولئك المبطلين، ومع أنه كان من سادات حفظة القرآن، ومن أشجع خلق الله في نصرة دين الإسلام، ولقد صار الأمر بعده إلى ابنه الحسن رضي الله عنه، فماذا منعه - الآخر - من انتهاز هذه الفرصة، كي يُظهر حقيقة كتاب الله للأمة، هذه مزاعم لا يقولها إلا مجنون، ولا يصدق بها إلا مأفون.

وأما قولهم: إن القرآن المنزل كان سبعة عشر ألف آية.

فهذا قول باطل: لأنهم كانوا يعدون القرآن بشرحه وبعض تفسيره ومعاني كلماته اللغوية، وكل ذلك كان قبل النسخ، وقبل العرضة الأخيرة، وما نقل بطريق الآحاد، وقد سبق أن بيّنا أن القرآن الصحيح الذي هو كلام رب العالمين هو المنقول إلينا نقلاً متواترًا عن رسول الله ﷺ، عن جبريل عن رب العالمين رب العزة - عزّ وجلّ - فما من القرآن كلمة ولا حرف إلا وعليه نص، فإن نصوص القرآن الصحيحة قد علمها وحفظها جمع يُؤمَن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم، وإلى أن تقوم الساعة، فحرام عندنا أن يقرأ أحد بما أداه إليه اجتهاده إذا لم تأت به رواية متواترة، وهذا الذي حرم على جميع القراء دخول القياس في القراءة. قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -:

وما لقياس في القراءة مدخل

وقد سبق ما فيه الكفاية من رد هذه الفقرة من تلك الشبهة حتى من كلام رؤساء الشيعة أنفسهم فها هو الطبرسي وكلامه في مجمع البيان، يقول: «أما

الزيادة في القرآن فمجمع على بطلانها، وأما النقصان فهو أشد استحالة» إلى أن قال: «إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان» إلخ.

وقد تقدم الكلام على ذلك فلا داعي لإعادته.

وأما ما أوردوه من العبارة المزعومة عن محمد بن جهم الهلالي وغيره مما نسبوه لكلام الله، فعلى فرض صحته، فإن ذلك كله من الأشياء التي نسخت قبل العرضة الأخيرة، وقد وفينا الكلام عليها من قبل، وهي عبارات كثيرة جدًا لا تتسع لها هذه العجالة، وقد أطال الكلام عليها الباقلاني في كتابه «الانتصار لنقل القرآن»، فارجع إليه إن شئت؛ لأن كلامهم ذلك فيه هذيان لا يتعلق به كبير غرض، ما دمنا قد بينا الحكم في ذلك من قبل، وذكرنا أمثلة منه عند كلامهم على المصاحف الخاصة التي أحرقت بعد نسخ مصاحف عثمان المعتمدة، والله يرشدك إلى الصواب.

وأما قولهم: إن عندنا مصحف فاطمة فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات ما في قرآنكم منه حرف واحد وقرآنكم هذا لا يحتوي جميع القرآن الذي نطق به محمد ﷺ.

فنقول ردًا على ذلك: أما قولكم: إن القرآن الحالي لا يحتوي على آيات القرآن التي نطق محمد؛ مستدلين بتلك الأدلة الواهية. فهذا استنتاج معكوس وفهم منكوس، لأن كتابة القرآن وحفظه في آن واحد في صدور آلاف مؤلفة من عهد الصحابة رضوان الله عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، أدعى إلى بقاء هذا القرآن، وأدل على أنه لم تفلت منه كلمة ولا حرف. كيف وأحد الأمرين من الكتابة والحفظ كافٍ في هذه الثقة. فما بالك إذا كان القرآن كله كان مكتوبًا بخطوط أشخاص كثيرين ومحفوظًا في صدور جماعات كثيرين، فقولهم هذا قول باطل وهو كلام مجرد من السند والحجة، لا دليل عليه، وما هو إلا إفك مفترى.

الشبهة الثالثة والأخيرة من هذا الباب: وهي إنكار الرافضة للأحرف السبعة: وقولهم إن حديث الأحرف السبعة موضوع، ومما يدل على وضعه اضطراب متنه.

وأنكروا كذلك تواتر القراءات، بل أنكروا القراءات، جملةً وتفصيلاً، وزعموا أنه قد دخل فيها وَهْمٌ وخلط وزيادة ونقصان، وأن رواتها من القراء ليسوا من أهل العدالة والضبط.

وقولهم: إن زيد بن ثابت كان يكتب في المصاحف بخبر الآحاد. فقد أخبر هو أنه كتب آخر التوبة بخبر أبي خزيمة الأنصاري، وآية الأحزاب: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ (الأحزاب: ٢٣). بخبر خزيمة بن ثابت، وأخذ المستشرقون عنهم هذه الشبهة حتى قالوا: إن الصحابة عندما كتبوا المصاحف كانوا لا يتقنون الخط والكتابة؛ فحدث خلل كثير في كتابتهم، وكانت الغفلة والنسيان والوهم تلحق الكتاب أثناء الكتابة، ومن الخلل الذي حصل فيها أنهم لم يبينوا الحروف بالنقط والحركات، وخالفوا قواعد الكتابة في مواضع كثيرة، فأدى ذلك إلى أن يبذل علماء الإسلام من التابعين ومن بعدهم جهدهم الشخصي في معرفة المكتوب وتمييزه، فوقع الاختلاف بينهم والتناقض، وهذا هو سبب نشأة القراءات.

ونقول رداً على هذه الشبهة: إن إنكار الرافضة أو غيرهم للأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم تيسيراً على الأمة الإسلامية ورحمة بها، إذ كانت قبائل العرب مختلفة اللغات متباينة اللهجات هو إنكار خادع، وتضليل ماكر؛ لأنه إنكار لم تسانده حجة واضحة، ولم يقم عليه دليل صريح، ولا شبه صريح، وإنما كلها أدلة باطلة أوردوها على سبيل المغالطة، وما يقصدون بذلك إلا التشويش على القرآن كتاب المسلمين وعلى دين الإسلام.

وأما القراءات السبع التي نزل عليها القرآن الكريم، ونص عليها رسول الله ﷺ في حديثه الذي بلغ حد التواتر عند الإمام أبي عبيد ابن سلام، وقد رُوى هذا الحديث عن واحد وعشرين صحابيًا - وهو حديث نزول القرآن على سبعة أحرف - فقد جاء النقل الصحيح لهذا الحديث من طرق كثيرة مختلفة عن جمع كبير من الصحابة منهم:

عمر، وعثمان، وابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وأبو بكر، وأبو جهم، وأبو سعيد الخدري، وابن طلحة، والأنصاري، وأبي بن كعب، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب، وسلمان بن صرد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو ابن أبي سلمة، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأنس بن مالك، وحذيفة، وأم أيوب امرأة أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنهم أجمعين.

وروى الحافظ أبو يعلى في «مسنده الكبير» أن عثمان ﷺ قال يومًا وهو على المنبر: أذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال: **«إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ»**، لما قام. فقاموا حتى لم يحصوا، فشهدوا أن الرسول ﷺ قال: **«أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف»**، فقال عثمان ﷺ: «وأنا أشهد معهم» وكأن هذه الجموع التي يؤمن طواطؤها على الكذب هي التي جعلت الإمام أبا عبيد ابن سلام يقول بتواتر هذا الحديث.

غير أن شرط التواتر هو توافر الجمع الذي يؤمن تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات الرواية، وهذا الشرط إذا كان موفورًا في طبقة الصحابة لهذا الحديث، لكن نحن لا ندري وفرته في الطبقات المتأخرة، وإليك جملة من تلك الأحاديث في هذا الشأن نوردها لك استدلالاً من ناحية، وبيانًا للمعنى من ناحية أخرى.

فقد روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن ابن عباس ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أقرأني جبريل على حرفٍ فراجعته، فلم أزل أستزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف»**.

وروى البخاري ومسلم أيضًا «واللفظ للبخاري» أن عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة الرسول ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة». لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة . فانتظرته حتى سلم، ثم لببته بردائه أو

بردائي، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ. قلت له: كذبت. فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان. فقال رسول الله ﷺ: **«أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام»**، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها. قال رسول الله ﷺ: **«هكذا أنزلت»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»**.

وروى مسلم بسنده: عن أُبيْ بن كعب قال: «كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه»، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضيا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله ﷺ. فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه. ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ فحسن النبي ﷺ شأنهما فسُقط في نفسي من التكذيب، ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقًا، وكأنما أنظر إلى الله - عزَّ وجلَّ - فرقًا أي خوفًا. فقال لي: **«يا أُبيَّ. أرسل إليَّ أن اقرأ القرآن على حرفٍ، فرددت إليه أن هوّن على أمتي، فرد إليَّ الثانية: اقرأه على حرفين. فرددت إليه: أن هون على أمتي. فرد إليَّ الثانية: اقرأه على سبعة أحرف، ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألينها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي اللهم اغفر لأمتي. وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم ﷺ»**.

واعلم أن ما سقط في نفس أُبيّ بن كعب وقتئذ من هذا الاختلاف في القراءة لا ينافي أنه من عند الله، لكنه كان خاطرًا من الخواطر السريعة التي لا تنال من نفس صاحبها منالاً ولا تفتنها عن عقيدة. ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لا يؤاخذهم على هواجس النفوس وخلجات الضمائر، ولكن يؤاخذهم بما كسبت

قلوبهم حين يفتح الإنسان للشبهة صدره، ويوجه إليها اختياره وكسبه، ثم يعقد عليها فؤاده وقلبه.

ومن هنا نعلم أن ما خطر لسيدنا أُبيّ بن كعب ﷺ لا يمس مقامه، ولا يصادم إيمانه مادام قد دفعه بإرشاد رسول الله ﷺ سريعًا، كما هو في الحديث الشريف؛ فإنه لا يستطيع أي إنسان أن يحمي نفسه من خواطر السوء الهوجاء ورياح الهواجس الشنعاء. إنما الواجب على المؤمن أن يحارب تلك الخواطر الرديئة بأسلحة العلم وتعاليم الشريعة ولا يستسلم لها ولا يسترسل معها، أضف إلى هذا أن خصومة أبيّ بن كعب في أمر اختلاف القراءة على هذا النحو إنما كانت قبل أن يعلم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فهو وقتئذ كان معذورًا؛ بدليل أنه لما علم بذلك اطمأنت إليه نفسه، وعمل بما علم، وكان مرجعًا مهمًّا من مراجع القرآن على اختلاف رواياته.

وكان من رواة هذا العلم للناس كما تلاحظه في الحديث الآتي وهو ما رواه مسلم بسنده عن أُبيّ بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاءة بني غفار قال: فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك إن القرآن على حرف، فقال: **«أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»**. ثم أتاه الثانية فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين، فقال: **«أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»**، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك على ثلاثة أحرف، فقال: **«أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك»**، ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرفٍ قرأوا عليه فقد أصابوا. اهـ.

و(أضاءة بني غفار) بفتح الهمزة في أضاءة وكسر الغين في غفار: هي مستنقع الماء كالغدير، وكان بموضع من المدينة المنورة، ينسب إلى بني غفار؛ لأنهم نزلوا عنده، انتهى. وغير ذلك كثير من الأحاديث الواردة في هذا المعنى، أوصلها صاحب «المناهل»، إلى عشرة أحاديث مروية عن الترمذي والإمام أحمد بسنده

والحاكم وابن حبان بسندهما والبخاري عن ابن مسعود. والطبري والطبراني عن زيد بن أرقم، وأخرجه ابن جرير الطبري عن أبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين.

فكيف بعد ذكر هذه الأحاديث التي بلغت حد التواتر والمروية من تلك الطرق الصحيحة عن أصحاب رسول الله الأمناء على رسالة نبينا وعلى وحي السماء، أن يقال: إن حديث الأحرف السبعة موضوع، مستدلين على كذبهم وافترائهم باختلاف ألفاظ الحديث الناتج من تعدد طرقه ورواياته والأحوال التي ذكرت في سبب إيراد هذا الحديث، كما هو الشأن في الأمر الجلل الذي يُعنى بالسؤال عنه.

أما عن إنكارهم للقراءات جملة وتفصيلاً، وزعمهم أن رواتها ليسوا من أهل العدالة والضبط، وأن زيد بن ثابت كان يكتب في المصاحف بخبر الآحاد، كما أخبر أنه كتب آخر التوبة بخبر أبي خزيمة الأنصاري وآية الأحزاب بخبر خزيمة بن ثابت. إلى آخر ما قالوه من أن الغفلة والنسيان كانت تلحق كُتّاب المصاحف، ومثّلوا للخلل في الكتابة أنهم لم يبينوا الحروف بالنقط والحركات، وقد تنبه لهذا التابعون من بعدهم وبمجهودهم الشخصي، فوقع بينهم الخلاف وأدى إلى نشأة القراءات.

نقول رداً على ذلك: اعلم ـ وفقك الله ـ أنه بعد أن أوردنا لك عددًا من الأحاديث في هذا الشأن، وبيّنا مدى صحتها، وما بلغ فيها حد التواتر عند بعض الأئمة، نبين لك السبب في ورود القرآن على سبعة أحرف، يقول المحقق ابن الجزري: وأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة، وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها؛ شرفًا لها، وتوسعة، ورحمة، وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق. حيث أتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف. فقال ﷺ: **«اسأل الله معافاته ومعونته فإن أمتي لا تطيق ذلك»**. ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف.

ثم قال: وكما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف. فإن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد، وأن الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين والنبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق: أسودهم، وأحمرهم، عربيهم، وعجميهم. وكان العرب ـ الذين نزل القرآن بلغتهم ـ ألسنتهم مختلفة، ولغاتهم شتى، ومتباينة، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغة إلى لغة غيرها أو من حرف إلى حرف آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك، حتى ولو بالتعليم والعلاج؛ لاسيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ منهم كتابًا، كما أشار إلى ذلك ﷺ في الحديث: «**فإن أمتي لا تطيق ذلك**»، فلو كُلفوا العدول عن لغتهم، والانتقال عن لسانهم، لكان في ذلك التكليف بما لا يستطاع. انتهى.

على أن العلماء تعللوا لذلك، وقالوا: إن تنوع هذه القراءات يقوم مقام تعدد الآيات في استخلاص الأحكام الشرعية من تلك القراءات، وذلك ضرب من ضروب البلاغة في القرآن، يبتدئ من جمال الإيجاز، وينتهي بكمال الإعجاز، ثم إنه في تنوع تلك القراءات الكثيرة من البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله وعلى صدق من جاء به وهو الرسول ﷺ؛ فإن هذه الاختلافات في القراءة على كثرتها لا تؤدي إلى تناقض في المقروء، ولا تضاد، ولا تهافت ولا تخاذل، بل القرآن كله على تنوع قراءاته يصدق بعضه بعضًا ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد في علو الأسلوب والتعبير، والهدف الواحد في سمو الهداية والتعليم، وذلك من غير شك يفيد تعدد الإعجاز بتعدد القراءات والحروف؛ فالقرآن يعُجِز إذا قرئ بهذه القراءة، كما يُعجِز أيضًا إذا قرئ بهذه القراءة الثانية والثالثة، وهلم جرًا.

فالقراءات المتواترة كلها على اختلافها وتنوعها هي كلام الله، لا مدخل لبشر فيها، بل كلها نازلة من عند الله تعالى، مأخوذة بالتلقي عن رسول الله ﷺ، يدل على ذلك أن الأحاديث السابقة تفيد أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يرجعون فيما يقرءون إلى الرسول ﷺ يأخذون عنه، ويتلقون منه كل حرف، يقرءون عليه، انظر قوله ﷺ في قراءة كل من المختلفين: «**هكذا أنزلت**»، وقول المخالف لصاحبه:

أقرأنيها رسول الله ﷺ . ثم أنه لو صح لأحد أن يغير شيئًا من القرآن، بمرادفه أو غير مرادفه لبطلت قرآنية القرآن وأنه كلام الله، ولذهب الإعجاز، ولما تحقق قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وأما قولهم: إن رواة هذه القراءات ليسوا من أهل العدالة والضبط.

فنقول لهم: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ (الكهف: ٥). ثم نقول لهؤلاء الملحدين: ما الذي تعرفونه أنتم عن العدالة والضبط؟ حتى تتكلموا في حق أهل العدالة والضبط، ومَنْ شهدت لهم السماء بذلك، وشهد لهم رسول الله ﷺ بها. فإذا كنتم قبل ذلك طعنتم في أجلّ أصحاب رسول الله ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان، وقلتم: إنهم زادوا أو نقصوا في كتاب الله وغيّروا وبدّلوا، فكيف لا تطعنون في زيد بن ثابت وأُبي بن كعب وغيره من قراء الصحابة أو قراء التابعين أو تابع التابعين، بل لابد أن يكون الطعن أشد وأكثر من باب أولى، فهذا الهذيان والتخريف لا يستحق الرد عليه ولا الالتفات إليه، ولكن كما يقال: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾ (يونس: ٣٢).

على أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا كما عرفت من قبل في غاية التحمس للدفاع عن القرآن الكريم، وكانوا حريصين كل الحرص في المحافظة على التنزيل، متيقظين لكل من يريد أن يُحْدِث فيه حدثًا، ولو كان عن طريق الأداء واختلاف اللهجات، مبالغين في هذه اليقظة، حتى إنهم كانوا ليأخذون في هذا الباب بالظنة، ينافحون عن القرآن بكل عناية وهمة، وحسبك استدلالاً على ذلك ما فعله عمر بن الخطاب مع صاحبه هشام بن حكيم. على حين أن هشامًا كان في واقع الأمر على صواب فيما يقرأ، وأنه قال لعمر تسويغًا لقراءته: أقرأنيها رسول الله ﷺ ، لكن عمر لم يقتنع، ولبّبه وساقه إلى المحاكمة ولم يتركه حتى قضى رسول الله ﷺ لهشام بأنه أصاب، وقال مثل ذلك فيما فعل أُبيْ بن كعب بصاحبه، وهكذا.

على أن المراد بـالأحرف في الأحاديـث التي سقنـاها هو وجوه في الألـفاظ وحدها لا محـالة؛ بدليل أن الخلاف الذي صوّرته لنا الروايـات المذكورة كان دائرًا حول قراءة الألفاظ، لا تفسيرًا للمعاني كـقول عمر بن الخطاب فيما سبق: إذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يُقرئنيها رسول الله ﷺ. ثم حكم الرسول أن يقرأ كل منهما وقوله ﷺ: «**هكذا أنزلت**»، فلا ريب أن القراءات إنما هي أداء الألفاظ لا شرحًا للمعاني.

ونريد أن نبين لك بإيجاز معنى تلك الوجوه السبعة المأخوذة من قوله ﷺ: «**على سبعة أحرف**»، فإن الإمـام ابن الجزري قد أوصل مـعنى هذه الجـملة إلى أربعين قولاً. ولكن نحن نقول ونخـتار من تلك الأقوال والمذاهب الرأي الراجح، والقائل: إن الوجوه السبعة التي لا تخرج عنها القراءات مهما كثرت، وتنوعت في الكلمـة الواحدة هي أن الكلام لا يخرج عـن سبعة أحرف في الاخـتلاف، وهي واردة على النحو الآتي:

١ ـ اختـلاف الأسمـاء من إفـراد وتثنيـة وجمع، وتـذكيـر وتأنيث، مـثل: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ** ﴾ (المؤمنون:٨). قرئ بالجمـع والإفراد في لفظ «**لأمانتهم**» وكذا قوله: ﴿ **وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ (البقرة:٤٨). و«**ولا تقبل منها شفاعة**».

٢ ـ اختلاف في تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر، مثل: ﴿ **رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾ (سبأ:١٩). قرئ «**باعد**» فعل أمـر أو فعل دعاء، وقرئ «وبـنا بعّدَ» بنصب «ربنا» وتضعيف العين في «بعـد»، وقرئ «ربُّنا باعد» برفع «ربنا» و «باعد» بالألف وفتح الدال على أنه فعل ماضٍ.

٣ ـ اختلاف وجـوه الإعراب، مثل ﴿ **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ** ﴾ (البروج:١٥). قرئ برفع لفظ «المجيد» عـلى أنه نعت لكلمة «ذو» وقرئ بجر «المجـيد» على أنه نعت لكلمة «العرش». ومـثلها قوله: ﴿ **عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾ (سبأ:٥). قرئ برفع «أليم» وجرها.

٤ - اختلاف بالنقص والزيادة، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (لقمان: ٢٦). قرئ بزيادة لفظ هو، وقرئ بحذفها.

٥ - اختلاف بالتقديم والتأخير، مثل قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ (التوبة: ١١١). قرئ بتقديم المبني للفاعل مرة، وقرئ بتقديم المبني للمفعول مرة أخرى.

٦ - الاختلاف بالإبدال في الحروف، مثل قوله: ﴿إثم كبير وكثير﴾ وننشرها أو ننشرها.

٧ - اختلاف اللغات، أي اللهجات: كالفتح والإمالة، والترقيق، والتفخيم، والتغليظ، وتسهيل الهمزة، وتحقيقها، والمراد بالتسهيل: مطلق التغييرين، أو الإبدال، أو الإدغام. غير أن هذا النوع الاعتماد فيه على المشافهة والنقل، فلم يسمح فيه بالتمثيل، فالفتح والإمالة يمكن أن يقال في مثل موسى وعيسى ويحيى تقرأ هذه الأسماء بالفتح والإمالة صغرى أو كبرى، وفي هذا القدر كفاية في معنى الأحرف السبعة، وإن أردت الاستزادة، فارجع إلى «النشر في القراءات العشر» لابن الجزري، فهو المرجع في هذا الفن، والله يرشدك.

أما قولهم: إن زيد بن ثابت كان يكتب بخبر الآحاد، مثل آخر التوبة وآية الأحزاب: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

فنقول رداً على ذلك: إن كلام زيد بن ثابت ﷺ، وهو «إني وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها إلا معه». هذا الكلام لا يبطل التواتر المشروط في نقل القرآن، وبيان ذلك أن الآيتين ختام سورة التوبة.

لم تثبت قرآنيتهما بقول أبي خزيمة وحده، بل تثبت بأخبار كثرة غامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم.

ومعنى قول زيد: «حتى وجدت من سورة التوبة آيتين لم أجدهما عند غيره».

أي لم أجدهما مكتوبتين عند أحد إلا عند أبي خزيمة، فالذي انفرد به أبو خزيمة هو وجودهما مكتوبتين لا بحفظهما، وإلا فكانتا محفوظتين عند كثير من

الصحابة. وليست الكتابة شرطًا في المتواتر، بل المشروط فيه أن يرويه جمع يُؤمَن تواطؤهم على الكذب، ولو لم يكتبه واحد منهم، فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثقًا واحتياطًا فوق ما يطلبه التواتر، ويقتضيه، فكيف يقدح في التواتر انفراده بها أي بالكتابة.

ويقال مثل ذلك فيما روى عن زيد في آية سورة الأحزاب: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

فإن معناه أن زيدًا لم يجدها مكتوبة عند أحد إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري، ويدل على أن هذا هو المعنى الذي أراده زيد بعبارته تلك، وهي قوله: «فقدت آية من سورة الأحزاب.. إلخ»، فإن تعبيره بلفظ «فقدت» يشعر بأنه كان يحفظ هذه الآية، وأنها كانت معروفة له، غير أنه فقد مكتوبها، فلم يجده إلا مع خزيمة، وإلا فمن أين له أنه عرف أنه فُقد آية إلا إذا كانت محفوظة له قبل ذلك.

على أن كلام زيد بن ثابت فيما مضى من ختام سورة التوبة وآية الأحزاب، لا يدل على عدم تواترهما، حتى على فرض أنه يريد انفراد أبي خزيمة وخزيمة بن ثابت بذكرهما من حفظهما غاية ما يدل عليه كلامه أنهما انفردا بذكرهما ابتداءً، ثم تذكر الصحابة ما ذكراه، وكان هؤلاء الصحابة جمعًا يُؤمَن تواطؤهم على الكذب، فدُوّنت تلك الآيات في الصحف، ثم في المصاحف بعد قيام هذا التواتر فيها.

على أني أذكر تعليلاً لطيفًا لهذه الحادثة، وينسب هذا التعليل للإمام القرطبي رحمه الله يقول ما معناه لعدم تذكري النص بالضبط ماذا قال، قال حينما اعترض البعض على تسجيل زيد بن ثابت لهذه الآيات مع مخالفتها للدستور الذي اعتمده زيد عند جمعه للقرآن في عهد أبي بكر، وهو أنه لا يكتب آية إلا بعد أن يُشهد عليها اثنان: أنها كتبت في عهد رسول الله وبين يديه، وهذه الآيات لم يُشهد عليها إلا واحد فقط، فعلى آخر التوبة شهد أبو خزيمة الأنصاري، وعلى آية الأحزاب شهد خزيمة بن ثابت.

يقول القرطبي: إن زيدًا أخذ الشاهد الثاني في آخر التوبة من الآيات نفسها.

أي من صدق مدلول الألفاظ وصحة معانيـها ومطابقتها للواقع من الأوصاف التي وردت فيهـا، وانطبقت على رسول الله ﷺ ، فـتلك الأوصاف دلت دلالة حقيقية على أنها قرآن.

وفي آية الأحزاب من أن شهادة خزيمة بن ثابت بشهادة اثنين، كما أخبر بذلك المعصوم ﷺ . انتهى، من تفسير القرطبي، مع شيء من التصرف في العبارة.

وأما قولهم: إنه قد حدث خلل كثير في كتابتهم للقرآن لعدم إتقانهم الكتابة، فمن الخلل أنهم لم يبـينوا الحروف بالنقط والحركات، وخالفوا قـواعد الكتابة في مواضع كثيرة. . . إلخ.

ونقول ردًا على ذلك: إن أقوالهم في هذه التهم وفي تلك الشبهات يشبه بعضه بعضًا في الكذب والافتـراء، فنهايتهم التي ختموا بها شبـهاتهم أقبح وأسخف من بدايتهم، لأنهم رتبـوا كل ما قالوه على تلك الأكاذيب والمهـاترات، ثم زادوا فيها اهتمامًا جديدًا مجردًا من السند والحجة أيضًا، وهو أنه حدث في آيات القرآن كثير من الخلل والاخـتلافات المدهشـة، ولا يعلم نص القـرآن الصحيح أحـد، وهكذا كلما خرجوا من اتهام دخلوا في اتهـام آخر، واحتجوا بكذب على كذب، وهانت عليهم كرامـتهم وعقولهم، فقالـوا ما شاء لهم من الهوى والتعـصب؛ حقدًا على دين الإسلام والمسلمين ﴿ **حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ (البقرة: ١٠٩)، وكل عاقل خبير بأن القرآن الحالي وصل إلينـا محفوظًا من كل عبث، كما نطق به الرسول ﷺ وكما خطه الله تعالى بـقلمه في لوحه المحفوظ: ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ** ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢).

نعم إن الصحابة كـانوا لا يتقنون القراءة، ولا يحذقون الخـط والكتابة، اللهم إلا نزر يسـير، لا يصاغ بـهم حكم على المجـموع، ويرجع هذا فـيهم إلى غـلبة البداوة عليهم، وبُعْدهم عن أسباب المدنية والحضارة، وعدم اتصالهم اتصالاً وثيقًا

بالأمتين المتحضرتين في العالم وقتئذ أمة الفرس في الشرق وأمة الروم في الغرب، ومعلوم أن الكتابة والقراءة وانمحاء الأمية في أي بلد مرهون بخروجها من عهد البساطة إلى عهد المدنية والحضارة، فهذه الأمية وتلك البساطة قد جعلت الرجل منهم لا يعّول إلا على حافظته وذاكرته فيما يهمه حفظه وذكره، ومن هنا كان تعويل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على حوافظهم، يقدحونها في الإحاطة بكتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأن الحفظ هو السبيل الوحيد إلى إحاطتهم به، ولو كانت الكتابة شائعة فيهم حينذاك لاعتمدوا على النقش في السطور، بدلاً من الحفظ في الصدور، فالرسول ﷺ قد عمل على كتابة القرآن كله، وكان له كُتّاب يكتبون الوحي، وكان بعض الصحابة يكتبون القرآن لأنفسهم كذلك، غير أن هؤلاء وهؤلاء كانوا فئة قليلة بجانب الجم الغفير من سواد الأمة الكثير، ولعلك لم تنسَ أن كتابة القرآن في عهد الرسول ﷺ كان الغرض منها زيادة التوثق والاحتياط للقرآن، بتقييده وتسجيله بالنقش، فوق تقييده وتسجيله بالحفظ، دون حديث رسول الله، وذلك خوفًا من خلطه بالقرآن.

لذلك قال في الحديث الذي رواه مسلم ما معناه: **«لا تكتبوا عني شيئًا غير القرآن، ومن كتب عني شيئًا غير القرآن فليمحه»**.

ثم إن الصحابة كانوا أمة يضرب بها المثل في الذكاء وقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وسيلان الذهن وحِدّة الخاطر، حتى لقد كان الرجل منهم ربما يحفظ ما يسمعه لأول مرة، مهما كثر وطال، وربما كان من لغة غير لغته، ولسان سوى لسانه، وحسبك أن تعرف أن رؤوسهم كانت دواوين شعرهم، وأن صدورهم كانت سجل أنسابهم. وأن قلوبهم كانت كتاب وقائعهم وأيامهم.

كل ذلك وتلك كانت خصائص كامنة فيهم وفي سائر الأمة العربية من قبل الإسلام ثم جاء الإسلام، فأرهف فيهم هذه القوى وتلك المواهب، وزادهم من المزايا والخصائص بما أفاد طبعهم من صَقْل، ونفوسهم من طُهْر، وعقولهم من

سُمُو، خصوصًا إذا كانوا يلتفون حول أعظم رسول، ويستمعون لأصدق حديث، وهو كتاب الله تبارك وتعالى، فهنيئًا لهم ولمن سار على طريقتهم وسلك مسلكهم.

أما قولهم: إن كُتّاب الصحف والمصاحف من الصحابة لم يبينوا الحروف بالنقط والحركات أي الشكل إلخ.

فنقول رداً على ذلك: إن القرآن الكريم نزل من غير نقط ولا شكل، ولم يؤمر الرسول ﷺ بنقط ولا بشكل فكتبت الصحف والمصاحف مجردة من ذلك؛ لتكون محتملة لما تواترت قرآنيته من هذه الأحرف السبعة، وليكون رسمه محتملاً لها، وظلت تلك المصاحف على حالتها تلك حقبة من الزمن، حتى كثرت الفتوحات الإسلامية، واختلط اللسان الأعجمي باللسان العربي، وفشا اللحن على الألسنة، وكان هؤلاء الأعاجم يعسر عليهم التمييز بين كلمات القرآن وحروفه؛ لأنها كما عَرفتَ غير منقوطة ولا مشكولة.

فخشى أمراء المؤمنين وولاتهم أن يفضي ذلك إلى اللحن في كتاب الله تعالى وتحريف كلمه عن مواضعها، فعملوا على تلافي ذلك وإزالة أسبابه، وأحدثوا من الوسائل ما يكفل لصيانة الكتاب العزيز من اللحن، وحفظه من التحريف بوضع هاتين الوسيلتين من نقط الإعجام الذي يفرق به بين الباء والتاء، والعين والغين. ونقط الإعراب الذي هو الشكل من فتح وضم وكسر وسكون، وعلى كلٍّ فلم يكن في عهد كُتّاب الوحي نقط ولا شكل، حتى يقال: إنهم لم يبينوا الحروف بعضها من بعض بالنقط والشكل، وقد قلنا: إنها كانت كذلك لتحتمل الكلمات القرآنية معنى الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن.

وأما قولهم: إنهم خالفوا قواعد الكتابة في مواضع كثيرة في القرآن.. إلخ.

فنقول رداً على ذلك: إن كُتّاب المصاحف لم يخالفوا قواعد الكتابة، ولكن كما قال فريق من العلماء إن هذا الرسم توقيفي من رسول الله ﷺ، وهو مذهب الجمهور، واستدلوا عليه بأن النبي ﷺ كان له كُتّاب يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم، وأقرهم الرسول ﷺ على كتابتهم.

قال ابن فارس: إن الخط توقيفي؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٤-٥). وقوله: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١). وأن هذه الحروف داخلة في ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ (البقرة: ٣١). انتهى.

على أن الكتبة لم يُحْدِثوا فيه تغييرًا ولا تبديلاً، بل ورد أنه ﷺ كان يضع الدستور لكُتّاب الوحي في رسم القرآن وكتابته.

ومن ذلك: قوله لمعاوية وهو من كتبة الوحي: «ألق الدواة، وحرّف القلم، وانصب الباء، وفرق السين، ولا تعور الميم، وحسن الله، ومد الرحمن، وجود الرحيم وضَعْ قلمك على أذنك اليسرى، فإنه أذكر لك».

فإن قيل: كيف يعلمهم الكتابة، ويضع لهم هذا الدستور، وقد كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب. فنقول: إنه كان ﷺ أميًا في بدء الرسالة لتكون معجزة له ﷺ، لكن قيل: إنه لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن علمه الله كل شيء، وأطلعه على ما كان وما لم يكن.

ثم جاء بعد ذلك أبو بكر فكتب القرآن بهذا الرسم في الصحف، ثم حذا حذوه عثمان بن عفان في خلافته، فاستنسخ تلك المصاحف على هذا النحو.

ويقول البيهقي في «شعب الإيمان»: من كُتب مصحفًا ينبغي عليه أن يحافظ على الهجاء الذي كتبت به تلك المصاحف، ولم يخالفهم فيه ولا يغيّر مما كتبوه شيئًا، فإنهم كانوا أكثر علمًا، وأصدق قلبًا ولسانًا، وأعظم أمانةً منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسهم استدراكًا عليهم منا نحن المسلمين فضلاً عن هؤلاء المغرضين المعطلين من الكفرة والملحدين.

فالنقط والشكل الذي يشيرون إليه هو من عمل أبي الأسود الدؤلي، وسبب استنباطه له أن زياد بن أبي سفيان أمير البصرة في أيام معاوية كان له ابن اسمه عبيد الله، وكان يلحن في قراءته، فقال زياد لأبي الأسود: إن لسان العرب دخله الفساد، فلو وضعت شيئًا يصلح الناس به كلامهم، ويعربون به القرآن. فامتنع أبو الأسود. فأمر زياد رجلاً يجلس في طريق أبي الأسود، فإذا مرّ به قرأ شيئًا من

القرآن، وتعمد اللحن. فـقرأ الرجل عند مرور أبي الأسود آية: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (التوبة:٣). بخفض اللام من رسوله. فاستعظم ذلك أبو الأسود، وقال: معاذ الله أن يتـبرأ الله من رسوله، فرجع من فَوْره إلـى زياد، وقال له: قد أجبتك إلى ما سألت. فاختار رجلاً عـاقلاً فطنًا، وقال له: خذ المصحف وصِباغًا يخالف لـون مداد المصحف، فـإذا فتحت شفـتي فانقط فوق الحـرف نقطة، وإذا ضممتهـما فانقط أمامه نقطة، وإذا كسرتـهما فانقط تحته نقطة. فإذا اتـبعته بغنة ـ يعني تنوينًا ـ فأنقط نقطتين، وهذا ما يسمى بنقط الإعراب أي الشكل.

وأما نقط الإعجام الذي وضع لبيان الحروف، وتمـييز بعضها من بعض، فكان على يد العالمين الجليلين: يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد عبد الملك بن مروان، وسببه نفس السبب في نقط الإعراب.

وأما قولهم: فقـام من بعدهم من الـتابعين علـماء وضعوا هـذا النقط وذاك الشكل ومن ذلك نشأت القراءات.

فنقول ردًا على ذلك: قد سبق أن بيَّـنا معنى نزول القرآن على سـبعة أحرف، وتكلمنا قريبًا على النقط والشكل، والسبب في وضعهما، وتعرضنا من قبل لنشأة القراءات، في الكلام على نـزول القرآن على سبعة أحرف، وبسطنـا الكلام عليها هناك فلا داعي لإعادته، وارجع إليه إن شئت، والله يرشدك.

هذا ما وفقنا الله إلـيه من الرد على هذه الشبهات التـي وردت إلينا، وعندما نجد شبهة بعد ذلك، فسنرد علـيها إن شاء الله تعالى، وبحمد الله تم، وأسأل الله لنفعه أن يعم، والله تعالى أعلى وأعلم.

★★

الخاتمة

أحمد الله سبحانه وتعالى وأشكره، وأتوب إليه، وأستغفره، وأثني عليه الثناء كله أن وفقني لـكتابة هذه الرسالة، التي كُلفـت بها من قبل الجامعـة الإسلامية، وأسأله الـتوبة النصـوح من كل ذنب وزلل، ومـن كل هفوة وخطـل، وأستمنـحه التوفيق والقبول لي ولكل من قـرأ تلك الرسـالة ودعا لصاحبها والمسلمين بالمغفرة، فإني وإن كنت قد سردت بعض الشبهات ورددت عليها إلا أن هناك شبهات أخرى لم يتسع لها المجال في هذه الطبعـة، ولكن إن شاء الله تعالى سأوردها وأرد عليها في طبعة أخرى.

وأرجو من كل مـن يقرؤها أن يزودني بملاحظـاته، واستدراكاتـه، فإن الدين النصيحة، والمؤمنون بخير ما تناصحوا، فلا أزعم لنفسٍ أني وفيتُ، ولكن قصارى جهدي أديتُ، والحمد لله في البدء والختام.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الصافات: ١٨٠-١٨٢). وصلى الله وسلم وبارك عـلى سيدنا محـمد أفضل النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله، وصحابته الطيبين الطاهرين، والتابعين، وتابع التابعين، ولكل مَنْ له حق علينا، والمسلمين أجمعين.

تقريظ

لصاحب الفضيلة الشيخ: محمد حافظ الدسوقي أستاذ اللغة العربية بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية.

الأستاذ المفضال: الشيخ/ محمد الصادق قمحاوي.

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وتحية طيبة من عند الله.

وبعد: فلقد أسعدتني الظروف أن أقرأ من نتاجكم العلمي العزيز الطيب مؤلفكم **«شبهات مزعومة حول القرآن وردها»** الذي ذدتم به عن حياض الدين، ودافعتم فيه عن كتاب رب العالمين، برد الشُّبه التي حاكتها قلوب مريضة، وعقول سقيمة، وأقلام مأجورة مسمومة، سخرها أهل الزيغ والجهالة، والإلحاد والضلالة، وزودها وأعان عليها مَنْ استهواهم الغي الأعمى والهوى الأصم، فهُمْ ومن جرى في ركابهم وسار على قدهم قد استحوذ عليهم الشيطان، فأنساهمْ ذكر ربهم، وتركهم في طغيانهم يعمهون. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (آل عمران: ٧).

فما زلتم بهذه الشُّبه الزائفة تلاحقونها بالحجج الدامغة وتناهضونها بالبراهين القاطعة، حتى كشفتم عن زيف الجاحدين القناعَ، كما نزعتم عن وجه باطلهم اللثامَ. حين أوضحتم بساطع بيانكم بطلانَ ما هم عليه من جهل وإلحاد، وزيفَ ما هم فيه من صَلَفٍ وعناد، فإذا هو زاهق.. ولله الحجة البالغة.

ولئن كانت لي كلمة من ثناء عليكم أو قول في تقريظ مؤلَّفكم القيم، فإني لا أجد في ذلك خيرًا من أن أسأل الله لك مزيدًا من التوفيق إلى رد كيد الجاحدين، ودفع شُبه الملحدين، وأن ينفعك وينفع بك، كما أسأله أن يجزي لك

أجر جهادك، وأن يغـدق عليك من أفضله كفاء ما قمـت به من الدفاع عن دينه، والذود عن قرآنه، وأن يجعـل ذلك لك ثقلاً في ميزان حسناتك، إنـه - سبحانه - أكرم من سُئل، وخير من أعطى، وهو نعم المولى ونعم النصير. تولانا الله جميعًا بتوفيقه، وهيأ لنا من أمرنا رشدًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

اخوكم / محمد حافظ الدسو

أهم مراجع هذه الرسالة

١ - الإتقان للسيوطي.
٢ - البرهان للزركشي.
٣ - مناهل العرفان للزرقاني.
٤ - غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري.
٥ - تاريخ المصحف لعبد الفتاح القاضي.
٦ - المدخل لعبد العزيز بن قارئ.
٧ - القراءات في نظر المستشرقين لعبد الفتاح القاضي.
٨ - القول الصحيح في الجواب على من بدل دين المسيح لابن تيمية.
٩ - مقالات لبعض علماء الإسلام في علوم القرآن.
١٠ - تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار.
١١ - تفسير الجواهر لطنطاوي جوهر.
١٢ - تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب.
١٣ - دلائل الإعجاز للجرجاني.
١٤ - الإعجاز البياني للقرآن للدكتورة بنت شاطئ.
١٥ - إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة.
١٦ - تفسير المنار لرشيد رضا.
١٧ - تفسير فتح القدير للشوكاني.
١٨ - تفسير مجاهد المحدث المقرئ.
١٩ - الانتصار لنقل القرآن للباقلاني.
٢٠ - المغني للقاضي عبد الجبار.
٢١ - الشيعة والسنة لإحسان إلهي باكستاني.

مؤلفات المؤلف

١ ـ البرهان في تجويد القرآن ويليه رسالة في فضائل القرآن «مطبوع».
٢ ـ طلائع البشر في توجيه القراءات العشر «مطبوع».
٣ ـ شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردها مطبوع.
٤ ـ رسالة في تفسير سورة المائدة مطبوع.
٥ ـ قاموس غريب القرآن مطبوع.
٦ ـ تهذيب وترتيب السجستاني في غريب القرآن مرتب على سور القرآن.
٧ ـ قلائد الفكر في توجيه القراءات العشر.
٨ ـ أحكام القرآن للجصاص ـ تحقيق خمسة أجزاء «مطبوع».
٩ ـ تحقيق تفسير البيضاوي «مطبوع».
١٠ ـ تحقيق تفسير ابن عباس «مطبوع».
١١ ـ تحقيق إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي «مطبوع».
١٢ ـ تحقيق تحبير التيسير في القراءات السبع «مطبوع».
١٣ ـ تحقيق المقنع في رسم مصاحف الأمصار لأبي عمرو الداني.
١٤ ـ كتاب معلم الصلاة للمدارس مطبوع.
١٥ ـ تحقيق تفسير الكشاف على رواية أبي عمر الدوري «مطبوع».
١٦ ـ دلائل النصر في شرح طيبة النشر في القراءات العشر «تحت الطبع».
١٧ ـ تحقيق تفسير الجلالين «مطبوع».
١٨ ـ تحقيق متن مورد الظمآن في رسم وضبط القرآن «مطبوع».
١٩ ـ «ناظمة الزهر في عد آي القرآن مطبوع».
٢٠ ـ مذكرة في علوم القرآن «مطبوعة».

فهرس الموضوعات